رواية

ليلى أبو زيد

عام الفيل

مكتبة الأدب المغربي

المركز الثقافي العربي

ليلى أبو زيد

عــام الفيـل

ليلى أبو زيد

عام الفيل

مكتبة الأدب المغربي

المركز الثقافي العربي

الكتاب

عام الفيل (رواية)

المؤلف

ليلى أبو زيد

الطبعة

الأولى ، 2011

عدد الصفحات: 128

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN 978-9953-68-519-3

جميع الحقوق محفوظة

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ــ المغرب

ص.ب.: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 307651 ـ 0522 303339

فاكس: 305726 ـ 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 343701 1 ـ 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

إلى

كل الذين عرَّضوا حياتهم للخطر من
أجل المغرب، نساءً ورجالاً، ولم يبغوا من
وراء ذلك جزاء ولا شكورا، أهدي هذا الكتاب.

- 1 -

رجعت إلى البلد مهيضة الجناح، يملأ اليأس قلبي. بالأمس هدني القلق واليوم كان اليأس أشد وطأة والكَرْب. أردت اليقين ولمّا وجدته ردّني إلى لا شيء. الأمس بعيد والعمر لا ينتهي. أربعون عاما تركتني مسكونة بالمرارة. أقول أربعين وقد تكون أكثر. أنا أشعر كأنها مائة على كل حال. عشت مخدوعة في الرجل الذي تزوجته ولم أعرفه إلا منذ الأمس. وها أنا في بلدتي، غريبة بين غرباء. خرجت وأنا دون العشرين ومنذ وفاة أمي لم أعد. أعود لمن؟ ولماذا؟

سقط البلد من ذهني مثل وثيقة رسمية فنسيته حتى احتجت إليه. حين قال: «ستصلك ورقتك وما يخوِّله القانون» فكرت فيه آليا. الآن والركاب يحملون متاعهم ويمضون أُمعن التفكير ولكن لا ملاذ. ما العمل؟ سمعت برجال يطلق سراحهم

فيعودون أدراجهم إلى السجن. أنا في هذه اللحظة أفهمهم ولكنني لن أعود أدراجي ولتفعل بي القدرة ما تريد. على أنني لا أشعر بالخوف وليس عندي رغبة في الانتقام. لا أسف ولا نقمة. ليس هناك سوى الشعور بأن شيئا فيَّ انطفأ أو توقف ومع ذلك ما زلت أنام وأصحو. الروح هي الحد الفاصل بين الحي والميت. لو أنني اقتُلِعْت من جذوري! راودتني الفكرة وأعوزتني الرغبة. عجبا كم نتعلق بالحياة!

جلس وقال: «ستصلك ورقتك وما يخوله القانون». ورقتي؟ ما أهون المرأة إذ تُرَدُّ كالسلعة، بورقة! ما أهونها! لم تدم اللحظة سوى ثوان ولكنها هدَّت بنياني إذ قضت على ما اطمأنت النفس إليه. حملقت فيه وسقط فكي.

- لماذا؟

- ليس عندي سبب.

وتناول مفاتيح السيارة وتسلل خارجا. إن كنت قد غبت عن الوعي فأنا لا أدري، ولكنني أعلم أنني وجدتني مقوسة، رأسي مائلة ويداي مبسوطتان كأنني جثمان.

حَلّ بي المصاب في أرذل العمر وأهلي أجداث في مقابر المدينة. ما العمل؟

العاصفة، عاينت أفعالها من السيارة العمومية وتطيَّرت. ألقت بالأشجار المبتلة في عرض الطريق واقتلعت الأكواخ.

ذكرتني بفعل النهر منذ سبع سنين. ذهب بكل شيء وترك لبلدتنا الفقر. إن ما تدمره جيوش العاصفة كاف لبناء مدن بأكملها. وأدمى قلبي شيء قال لي إن هذه العاصفة إنما تنذر بما هو آت. لا يهمني.

غاب الركاب في بوابة البلدة ولم يبق إلا صوت الريح. في القهوة القديمة كراسي مقلوبة على الطاولات، فارغة كالعهد بها، يتعاون عليها البرد والفقر وتُصارع مثل السكان.

عبرت الساحة وتنشقت رائحة البلدة. خليط من رائحة الأرض المبتلة ونفايات الدواب. ثم عبرت البوابة. كنت كلما عبرتها انتشيت، لكنني تعديتها ورأيت في ما وراء السور شبابيك النوافذ المقوسة في الغرف البالية، القائمة على حرف النهر ولم أشعر بشيء. هل فقدت حتى هويتي؟

النهر زاد عمقه بعد الفيضان وقل ماؤه. صوته موحش والبلدة مقفرة. دروبها قبيحة والحيطان مقشرة. دكاكين حيص بيص: فحّام، خيّاط، بَقّال بضاعته قليلة. والينابيع تصب في الأحواض. صوتها تكرار، وتكرار. شملني التوتر. متاجر اليهود عليها أقفال وعوارض. كانت لهم مدارس ومعابد. بعدهم خفّت الحركة ونزلت الأسعار. تاجروا وباعوا الجعة وانتحلوا السحر ثم ذهبوا في دفعات وحملتهم البواخر من طنجة. الآن كأنهم أطياف مرت بهذه البلدة. عربيتهم إنتاج فظيع.

وانبثق في الذهن قوام معتدل، ممتلئ، معصوب الرأس،

لفاعه يتدلى واسعا، مثلثا ومحفوفاً بالفتائل مثل وشاح راقصة الفلامنكو. صورة عمرها ثلاثون، خمس وثلاثون سنة، رأيتها مستندة إلى حرف باب رحمة.

كنت كلما دخلت زقاقنا وجدت عند باب رحمة يهودية. بينها وبينهن ميثاق غليظ. تقرأ لهن الورق ويأتينها بالقرابين. يقبلن يدها ويدعين لها وهن منصرفات. بارت تجارتها الآن، لابد، وانزوت في عقر دارها المظلمة.

إن نسيت سكان الزقاق برمتهم لا أنساها. لي معها ذكريات حافلة. رأيتها منذ فتحت عيني على الدنيا وضربت في مخيلتي بقوة. هي عندي مخلوق ضخم فوق ما يتصور البال. حمراء الشعر لكثرة ما تخضِّبه. تلف رأسها في لفاع أصفر يلمع وتتدلى من أطرافه فتائل حريرية ممزوجة بسوالفها المخضوبة، وتثبته بحاشية مبطنة زاهية الألوان. صوتها عال وسلاطتها قاطعة وسبابها لكمة في الأنف. تقضي يومها على عتبة بابها العالية وتدثر سيقانها في الفصول الباردة، فلا يدخل الدرب إنس حتى يفضي لها بما وراءه، ولا يلتقي اثنان على أمر من أمور الدين أو الدنيا إلا وكانت ثالثتهم. امرأة ليس منها اثنان في البلدة. معروفة حتى التخوم في السهل والجبل. تخزن لدوائر الزمن في ذهنها الرهيب الفضائح والأسرار، فإذا أعلنت حربها على أحد هرعت النساء إلى الأبواب والسطوح وتجمهر المارة وتحول الزقاق إلى ساحة موسم. لا يزعجها شيء اللهم

إلا التلميح إلى أصلها المجهول. من تكون؟ من أين جاءت؟ كيف جاءت؟ في حياتي لم أصادف أحدا يعرف. ورحل كثيرون من دون أن يكتشفوا السر الذي عاش في صدرها والذي ستحمله معها إلى القبر.

وبقدر الجهل تكاثف الغموض ووجدت الإشاعات فيه مرتعها الخصب، فهي «ساحرة» و«مخبرة» و«ذات ماض» والحقيقة يعلمها الله. مع ذلك تؤلمها الأقاويل وتحثها على مواصلة الحرب ورفض الهدنة فيترامى من بابها المفتوح دائما غناؤها الفذ الذي ترسله على الأعداء كالرماح. بإيعاز من الكبار أيقنا أن في بيتها بابا سحريا تلقي فيه بالأطفال المشاغبين، يفضي إلى نفق يمر عبر المغارة الواقعة في مدخل البلدة ويقود إلى سجن رهيب تحت أرض مكناس، ناهيك عن خَواب وأزيار معبأة بكنوز من عهد سليمان. تشاجرت مع أمي وبادلتها السباب وهي جالسة كالعادة، تسد بكتلتها باب بيتها. وبعد ذلك خطفت أصغر أخواتي في غفلة من الزقاق وتركتنا نلف البلدة كالمجانين وهي، من مرصدها، تراقب وتحرك العصا في تؤدة.

وبعد حادثة الاختطاف ركبت هذه المرأة الغريبة لخيالي أجنحة أمعنت تحليقا بها في سماواتها الخرافية. بهرتني ومارست علي سحرها فانجذبت إليها كما تنجذب الفراشة إلى الضوء وعزمت على أن أتسلل إلى مملكتها وأنتهك ألغازها

فأخذت في التقرب إلى ابنتها. نعم كانت لها ابنة أصغر منا تدعي أنها ابنة بطنها وإن كان أحد لا يصدق ذلك. مثل عصاها لا تفارقها وحين تسير تتوكأ عليهما بالتناوب وهي تتمايل ثم تتوقف لتلتقط أنفاسها فتخنق الدرب وتعطله. بذلت مساعي جبارة للتقرّب، وحين دعتني لمشاركة ابنتها لعبة الحجلة سارعت إلى القبول. وشرعنا، وهي تراقبنا، نقفز بقدم واحدة فوق أضلاع المربعات التي تغطي عرض الزقاق. ومرت أيام قبل أن تتوطد العلاقة وأُدعى لدخول البيت.

دخلت والأطفال ينظرون إليّ مبهورين. شعرت بالرهبة والخوف من المجهول. سرت متربّصة بخطى ثابتة كمن يدخل فيلما من أفلام الرعب وهو يعلم ما ينتظره. مررت بنظرة شاملة، عجلى على داخل الدار فرأيت بضع خواب وأبوابا مغلقة وفناء واسعا تتوسطه شجرة تين في جذعها مجموعة من عرائس القصب على حواش صغيرة ومخدات. ولم تستحوذ العرائس الساحرة على اهتمامي بقدر ما كنت مشغولة بالأبواب المريبة، المغلقة على الظلمة والصمت وبما يملأ الخوابي من كنوز. ثم ندت من أحد الأبواب أصوات كأنها أقدام تمشي على القش فتعلقت حواسي بها وأخذت أتصور ما يخفيه الباب من كائنات في هيئة الإنس لها قرون وأذيال وقوائم. ثم حاولت إقناع نفسي بأن الحجرة لا يسكنها في الحقيقة إلا حيوان أليف، عنزة مثلا ولكن توهماتي كانت مجَسّدة وواقعية كما لم

يكن عندي استعداد لقبول هذا الاحتمال فأبعدته واحتفظت بالتصوّر الأول. قدرة الصغار على الخيال لا تعدلها إلا قدرتهم على تصديقه. قال الأطفال: «لن تكبر. توكؤ أمها عليها لن يدعها تكبر.» وصدقتهم. ولكن عندما تركتُ البلدة إلى الدار البيضاء، كانت شابة يافعة، رشيقة، نضرة، بضفائر سوداء، غزيرة، تلقيها خلف ظهرها فيتضاعف جمالها.

وعندما سكنت الرباط بعد الاستقلال نزلت ليلة القدر إلى المدينة القديمة أطوف على المزارات. سرت بين حشود فيها كوكبات الأطفال الذين صاموا لأول مرة وقد زينت البنات ورسمت وجوههن الصغيرة حتى بدين كعرائس الخشب المغلفة بالقماش الأبيض وأطفال آخرون يطوفون على المقاهي البلدية الآهلة ويعرضون على مرتاديها مسح أحذيتهم بتودد. وآخرون انقلبوا مع المناسبة تجارا مؤقّتين يبيعون الشمع في أبواب الأضرحة ويشدون الزائر من كمه حتى يفقد صبره وينهرهم فينصرفون عنه إلى زائر جديد.

وتحت سقيفة درب طويل سار الناس فيه كطابور من النمل رأيت جماعة المتسولين الذين تسمع توسلاتهم وتتضح في اللغط وبينهم، لهولي، ابنة رحمة وفي حجرها طفل ترضعه. بدا منها وهي مطرقة شعر مغبر لابد ويدان هزيلتان لم أر من قبل مثل هزالهما. ورفعت رأسها والتقت عينيّ بعينيها فانتابني

ذهول شديد. ودفعني التيار فوجدتني في صحن الضريح واليد الهزيلة والنظرة الخابية مرسومتان أمامي بوضوح.

ماذا حدث لها؟ مشاكل من كل نوع تصادفها بنات اليوم ولكن ما الذي أوصلها إلى هذا الحد؟ اضطربت واستحييت أن أكلمها ولم أدر ماذا أصنع فبقيت في الضريح. وعندما خرجت لم تكن في مكانها ولا في أي مكان ولم يكن من السهل العثور عليها في هذه الحشود. وبحثت عنها بعد ذلك كلما نزلت إلى المدينة القديمة ولكنني لم أرها أبدا.

وها هي دار رحمة، في منتصف الزقاق، إلى اليمين، لكن بابها المصفّح مغلق. هل رحلت إلى دار البقاء؟ وبيتنا هو هو. ما عرفته إلا هكذا منذ كان. تقاسمناه من أول وهلة ودخله المكترون. تخطيت عتبته وبانت الأبواب، مردودة حول الفناء. نحن أيضا كنا نردها مع بداية الخريف.

طرقت باب حجرتي وخرجت ساكنتها. عرفتني حين أمطت النقاب وأدخلتني بعد إلحاح. وضاعة المسكن أشعرتني بالوضاعة. بحثت في ذهني وطال بالمرأة الترقب. استعدّت للأدهى فلم تفاجأ حين قلت لها:

- أريد الحجرة لأسكنها.

تحسبني أتحايل. تعلمت أن لا سبيل للإقناع بدون طرح الخلفيات فقلت بلا تواش وراقبت وقع الخبر عليها:

- طُلِّقْتُ وليس لي سوى هذه الحجرة.

رأيت ما بين عينيها يتغضن وفتحت فمها ثم أغلقته. الطلاق عندنا في حد ذاته كارثة. فعل كلامي فعله. حطمت حججها بالضربة القاضية فلم تزد على القول حين نطقت:

- سأفرغ.

تمتمت بالشكر ودعتني لكأس شاي ولكنني اعتذرت. أنا أعرف ما يعنيه كأس الشاي لامرأة فقيرة مثلها ثم همي الآن أن أجد مكانا أنام فيه. شيعتني إلى باب الدار ومشيت على أسوء حال، مشية كائن يعتريه الخلل.

أوحال، روث، خرائب، إسطبلات، زبال ينفخ مزماره وراء حمار مثقل بالقمامة. بلدة من بطون التاريخ لولا البلاستيك والكهرباء. وها هو الضريح، أبيض، مستطيل، عليه قبة.

حذائي ملّوث بالوحل. نفضته وحملته ودخلت. الفقيه قابع في ركنه وأمامه مجمرة يصطلي بها. شيخ كبيتنا، منذ عرفته. رأيته واطمأن قلبي. خفت لوهلة أن يكون مثل رحمة، قد رحل. لم يتغير فيه شيء كأن الزمن لا يمر به. أو لعل شيئا تغير. لحيته. كأنها ازدادت بياضا. أخذت يده وشعرت وأنا ألثمها بدفئها ونعومتها. لم ينتبه. جلست ورفعت حرف الحصير ودسست الحذاء. وهذا البياض! كم عمره؟ سبعون؟ ثمانون؟

أكثر؟ هذا ما كنا نقوله من أيام طفولتي، أيام جدتي. كانت من مريديه. رحمها الله رحمة واسعة. كانت لا تنفك تلهج بحمده. تترنح عنده في مجالس الذكر حتى تفقد وعيها وحين لا تعقد مجالس للذكر تبكي وتشتكي. تأخذني دائما معها. وكلما جئناه شعرت بالخطر. تُسقط طرف غطائها الصوفي من على وجهها. ذلك الغطاء الذي تبدو فيه نساؤنا مثل خيمات بيضاء تمشي في الأزقة. وكلما وصلنا إلى بائع الغلال وانعطفنا إلى الضريح ساورني الخوف حتى اقترنا في نفسي، أعني الدكان والخوف، إلى ما بعد أن كبرت وصرت امرأة.

نظرت إلى الشيخ ووجدته يقرأ في صمت. أنا مثقلة بالهم. كأنني لا أستطيع التنفس. لم أقل ما أعنيه. أف! ما أقصر التعبير! في الجدار لوحة قديمة عليها اسم الله بحروف كبيرة وكرة من زجاج ملون معلقة في السقف للزينة. تمتم الشيخ بلكنته الأمازيغية التي لم يصقلها حفظ القرآن ولا عمره الذي قضاه في البلدة، وسمعته: ؟حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم... ؟ ولبدت. عقلني التعجب من فصاحة القول. كأنه يعنيني أنا. هذا ما لم أعرف كيف أقوله. هذا هو التعبير! وسكت الشيخ فقلت له:

- هل أستطيع أن أقضي الليلة هنا يا... سيدى؟

أردت أن أناديه باسمه ولم أجده. ونظر إلي فرأيت في وجهه نقاء سريرته.

- أليس لك مكان آخر؟

- أليس لي سوى هذا المكان. طُلِّقت اليوم.

تكدَّر وجهه، وهزتني الكلمة أنا أيضاً. عجبا كيف لم تفقد حدتها. وتصاعد في داخلي إحساس مفجع غصصت به فنزلت دموعي وقال الشيخ:

- لا تبكي!

زاد بكائي حتى انتحبت. بكيت أيامي وغربتي في عقر الدار ثم جففت دمعي ونظفت أنفي وقال الشيخ:

- لهجتك محلية. لا تخفى.

صحيح أنها التصقت بي كرائحة السمك. هي وحجرتي كل ما آل لي من هذه البلدة. قلت له:

- لم تعرفني إذن يا سيدي؟

- كلا.

- أنا زهرة. كنزة جدتي. تَردَّدَتْ عليك حتى آخر لحظة. هل تذكرها؟

ملأه الحبور حتى فاض من وجهه، وتعجّب من تغيّر المرء إلى هذا الحد، ثم قال باستسلام:

- هذا ما جاء به المكتوب.

فقلت بتحد:

- هذا ما جاء به الاستقلال.

- ولكن ما السبب؟

تصاعد فيَّ الحنق فقلت بعنف:

- لا آكل بالشوكة. لا أتكلم الفرنسية. لا أجالس الرجال. يكفي أو أزيد؟

- هذه مثُلهم؟

- لست سوى سكة قديمة تصلح للمتاحف. مناصبهم الآن تحتاج للعصريات.

قال وهو ينظر إليَّ نظرة من يستمع إلى عائد من المريخ:

- المبادئ أكثر شيء عرضة للتلف. ما أقدر الإنسان على النسيان!

- لا عليك! الوطن نفسه ينسى.

- ليس لك شيء؟

- لا شيء سوى حجرة في بيت أبي متفرغ عما قريب ونفقة ثلاثة أشهر وعشرة أيام.

- البلدة كلها أقاربك.

- ليس ثمة إلا الأبعدون وقد زادهم انقطاع العلاقة بعدا. ثم ما الفائدة؟ أنا أعرفهم: «غبت حتى نسيناك... كيف تتحملين؟... تألمنا لمصابك...» لا. لن أبحث عن أحد.

- الوحدة مدية حادة لأمثالك.

- عفت الناس وعفت حتى نفسي. كل شيء مرض، جفاف، تخاذل. ما ذاك يا سيدي؟ هل هو السحر؟

- حذار! ذاك مستنقع أوحال إن دخلته غصت فيه.

- ولكن النبي نفسه سُحِر.

- صلى الله عليه وسلم.

- تعرف ذلك.

- ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

- هل هي العين على الأقل؟

- الله أعلم.

- والله؟ هل يتخلى؟

أشاح وسقطت حبة في سبحته وغرق في التمتمة.

- لماذا يسمح الله بالظلم؟

- ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ (تلا ذلك ثم عاد إلى تمتمته) الصلاة على النبي تفرج الكرب وتنقي النفس كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس.

- إن البلاد غارقة في وحل الدنس.

- ولكنها لا تخلو من خير. لولا ذلك لحل بنا الغضب.

- ألم يحل بنا الغضب؟ الحياة فسد طعمها والكرب يسري في الهواء.

- لا كرب يدوم.

- عزمت أن أعايشه. رجال أعرفهم داووه بالخمر وأجابهه أنا بكامل وعيي.

- أبشري! الصبر مؤشر الإيمان.

- لولاه لفقدت العقل.

- حالك إلى زوال يا ابنتي والعاقبة في الدار الأخرى.

- وماذا في هذه؟ لا شيء في لا شيء أو قليل ما فيها.

- إنها عارضة والأخرى هي الحق فلنؤمن ولنسِّبح لله!

تركني برهة ثم عاد بكأس من طين فيه ماء وبخبز شعير وقرطاس فيه زيتون أسود. أكلنا من القرطاس في صمت ثم جاءني بفراش وغطاء وانصرف.

بلغ مني جهد اليوم مبلغا كبيرا فحسبتني نمت لتوي لولا أنني ذكرت في الصباح نقرات المطر على دوالي الكروم في البيوت المجاورة كأنها آتية من طفولتي.

اعتكفت في الضريح إلى ما بعد الظهر ثم ذهبت إلى المرأة. مع رحيل اليهود لن يشق عليها العثور على حجرة. وجدت في مدخل زقاقنا صبايا يلعبن بالحبل وأخريات على

ظهورهن رضَّع، وجوههم تعكس العافية رغم الفقر، بفضل وفرة الحليب. إن الأسر تبعث بأبقارها إلى الجبل وتبقي واحدة أو اثنتين تدرّ عليها ألبانا تستهلك منها وتوزّع بالمجان لحسن حظ مثل هؤلاء الأطفال.

وقفت أراقب الصبايا. سعادتهن عجيبة. كأنهن أنا منذ أربعة عقود. لو أننا نعلم ما ينتظرنا لقضينا الطفولة في المرح. وكدَّرني الخوف مما تخفيه لهنَّ الأيام.

«ما يخوله القانون!» وما ذاك؟ مصروف مائة يوم؟

وجدت متاع المرأة في صحن الدار وجاء حمال وضع كل شيء على عاتقه وخرج ورأسه في صدره وسلمتني هي المفتاح ولحقت به على عجل.

دخلت الحجرة وتفحّصتها. خاوية على عروشها وحجمها مُقبِض. لكنني حمدت الله عليها ورجعت إلى الشيخ. قلت له:

- أفرغت حجرتي. لن أفيك حقك من الشكر.

- الشكر لله.

قبلت يده وتوليت فاستوقفني قائلا:

- خذي الفراش... والحصير.

أردت أن أشكره ولم أعرف ماذا أقول. في حياتي لم أجدني في مثل هذا الموقف. وضعت الحمل على رأسي

ومشيت في الطرقات في هوان شديد. شيخ منهل خير في زمان الوعاظ فيه فجار.

وفي حجرتي في بيت أبي قضيت الليلة الثانية من المائة ليلة. ها أنا أعدها كما كانت شهرزاد تعد لياليها.

- 2 –

رجعت بعد المشيب إلى الصقيع والماء المثلج. ذهب كل شيء، كل شيء، حتى الحلية، حتى شجرات الزيتون. كان الاستقلال غاية الغايات كأنه باب الجنة. أنا الآن أدرك معنى إبقائي على هذه الحجرة. شيء في اللاشعور منعني من بيعها. على أن النساء عندنا لا تبيع العقار. ونحن قوم نجمع بين البداوة والحضر كالآخذ بين طرفين. ذوقنا المديني عكسناه على النقش والزليج والرخام في الدور والمساجد والحمامات. وبداوتنا في حبنا للأرض وانظروا إلى هذه الخضرة!

السفح والوادي توت ورمان ومغارس كرز وزيتون. والسهل بقع مستطيلة نزرعها بطيخا وخيارا وذرة. الأطلس يطل علينا والضواحي شلالات وبحيرات ومغارات عجيبة. من يعرفون غرناطة يشبهون بلدتنا بها من حيث الموقع والخضرة لولا أن النقد عندنا قليل. ذلك أن موردنا هو البساتين، تلك

التي فديناها برجالنا، حقيقة، فما أكثر من سقطوا غدرا وهم يسقونها ليلا. أذاقنا لصوص الجنان المر وذاقه معنا القائد الأمازيغي. ملأ السجن منهم ولم ينتهوا.

نعم نتعلق بالأرض كما نتعلق بالعقار ومن نزعتنا الثنائية هذه اكتسبنا مهارات في الزراعة والحرف. نسيج وحدنا أم ترى لنا أنداد؟ الله أعلم، فأنا لا أعرف عدا البلد سوى فاس والدار البيضاء والرباط، زيادة على القرى التي مرت بي منها طريق النضال، مولاي بوشعيب، الخميسات، سوق الأربعاء. كيف أنساها؟ ضربت كل منها في ذاكرتي كما يضرب النقد في المعدن.

المرأة عندنا لا تبيع العقار. هذا هو العرف. شببت عليه بين أقوال وأفعال ووجدت جدتي منذ وعيت تردد: «المرأة ليس لها سوى زوجها أو عقارها، والأزواج لا يؤتمنون.»

ما أقوله راجع للطفولة أما الآن فقد دخل الأولاد والبنات المدارس وبدأت الحرف والبساتين في الإنقراض وهاجرت الناس إلى الرباط والدار البيضاء وعما قريب لن يبقى هنا ما يعتاش منه أحد، حتى الغدران جفت. ماذا حدث لهذه البلدة؟ مثلي هَمَّشوها وقضوا عليها.

بيت أبي ينوء بالسكان كالفندق الذي نمت فيه ذات ليلة. تقعَّرت أرضه. ستميد ويهوى بنا إلى الكهف. ذلك الكهف! كان دنيا عجائب عند أبي، مغارة علي بابا. فؤوس ومعاول

ومحاريث، جنبا لجنب مع البهائم. أمضى أعذب ساعاته في تداول كنوزه تلك على ضوء القنديل.

لم أره، رحمة الله عليه، إلا وما بين حاجبيه معقود. وإذا أفلتت منه ضحكة كبحها ونَهَرَنا كأن الذنب ذنبنا. وإذا تمادى به الغضب دعا علينا واستثناني. كثيرة الإمتثال منذ كنت. أجمع الزيتون بلا هوادة وبرد الأطلس يقهر حتى الرجال. كان يؤثرني لأنني لم أكن أعيش عنده وأرجح أنني ما اكتشفت ذلك إلا في ما بعد. يعقلني الخوف إذا تناهى إليّ صوته ولا أشعر بالأمان حتى يذهب أو أعود إلى بيت جدي. وأتصور أنني كنت أرهبه من باب التضامن مع إخوتي.

أما أمي فلم يكن لها عندي شيء. لا حب ولا كره ولا شيء، كأنها شخص غريب التقيته في الطريق. ورثت عن جدي أنفه الكبير وجسده الضئيل. وأنا أفكر فيها أراها داخلة زقاقنا العتيق وهيكلها ملفوف في غطاء مقلم، أبيض كالثلج. كانت نظيفة إلى حد الهوس ودؤوبة على أشغال البيت. تشتغل وهي تغني، وفي غنائها دائما كلام عن الأعداء وفي أذنها دائما خرزة حمراء، قلبها أبيض. وحين تعود لها جدتي من فاس برزم فيها خفاف مطرزة وأقراط وقماش ونتداولها يقول جدي: «تلبسين بالعافية.» وتقول جدتي: «تكيدين الحساد» أو تعمين الأعداء». والمقصود عماتي وزوجات أعمامي. لا أذكر متى عرفت ذلك بالتحديد ولكنني متأكدة أن التكرار ألقى في روعي

منذ سن مبكرة أن أمي، المسكينة، تعيش في جحر ثعابين. على أن بيتي في الحقيقة هو بيت جدي. فيه كنت أستيقظ وأشكر الله على أنني حية أرزق.

جدي أقفل القرن أو جاوزه أو قاربه. لا أدري، لكن أسنانه سقطت ونبتت له أسنان أخرى. نزل من الجبل وتزوَّج من جدتي وسكن البلدة. يتكلم العربية بدون لكنة. هو في ذهني قميص أبيض مشقوق الكتف، متشح بحمالة المحفظة، وعمامة كثّة وأنف كبير كالتينة ولحية بيضاء. كنت أعدو وألعب وأفعل ما أشاء. ليس ثمة في بيته من يجرؤ على مسَّ شعرة مني. كان قلبي يتدفق بالحب وأمامي آفاق وردية. كنت مفتونة بالحياة. أنظر إلى جذع كرمة العنب الهرم وأتابعه إلى أعلى حيث يلتف بدرابزين الصحن وأحس أن سعادتي لا نهاية لها. وعندما فكرت في العودة إلى البلد كان هذا البلد هو بيت جدي، لكن أين هو الآن؟ باعه الورثة ودخله أكثر من مشتر. أنا بلا بلد. كأن هذه البلدة مطار نزلته لأغير الطائرة وليس هناك من يلوِّح لي ولكن ذلك لا يعنيني.

- هي لكم حتى تدفنكم أو تدفنوها.

كم كان جدي يكررها! يقولها حين تقول جدتي:

- وضعتكِ أمكِ في العام الأول من زواجها ومرضت مرضا خطيرا فانشغلنا بها ونسيناك.

انظروا إليَّ. عالة من أول يوم.

- ...ثم عرضنا عليها أن نكفلك فقبلت.

وما أن تقول: «قبلت» حتى يتلقفها جدي ليعيد عليّ قول أبي إنني لهم حتى أدفنهم أو يدفنونني.

كانت جدتي آخر الراحلين وحين ذهبت أيقنت أنني لم أعد من أحد. ما يزال وجهها أمامي، مبتهجا بي، تؤطره فتائل الحرير المتهدلة من لفاعها. أحببت فتائلها كأنها جزء من وجهها مثل ابتسامتها. حزامها عريض، مطرز، يلتف حول جذعها الممتلئ، وأدبها جم، توزعه حولها بكرم باذخ. كيف قيضت لي الحياة في كَنَف هذين المخلوقين ليجعلا من طفولتي واحة تفيأت ظلها قبل أن أضرب في صحراء حياتي؟

الخضرة دائمة عندنا حتى في الصيف لكنها في الربيع تبلغ العنفوان. حينذاك نخرج في موكب إلى بستان جدي. كلما ذكرته والربيع وجدت نفحة من الورد البلدي وخُضرة الأشجار ورجعت إليّ مشاعر رهيفة. لكي نصل إلى بستان جدي نمشي في مسلك طويل، عابق بالأريج والزقزقة بين سياجات نباتية يكمن توتها البري الأسود بين الشوك والأوراق وتلوح في أعلاها فروع الرمان الخضراء ملتهبة بجمار أزهارها. منذ صغري فضّلت شجرة الرمان وأحببتها حبا جما. ونعبر غديرا رمى جدي عليه معبرا بدائيا من الأعمدة الخشبية والطين. باب البستان قصير، من عهد آدم، يئز كالمنشار. نفتحه وتظهر

الخضرة في درجات. وهذه الخضرة اليانعة! مبهرة بجمالها. منها ومن أوراقها أعرف الأشجار.

في ذاكرتي أيضا من بستان جدي ملاءات بيضاء تحت شجرة التوت وهناك من يهز الأغصان من فوق فتتساقط الحبات الناضجة كالوابل تتبعها الأوراق ثم نحن ننتظر أمام الأرجوحة وفينا النساء فإذا جاء دوري هدهدتني جدتي بموال يعود فيه اسمي كاللازمة وضحكتي تتدفق كماء مصبوب في دَرَج. كان ضحكي لا يَفْتُر والآن تَفْتَرُّ شفتاي ولا تأتي حتى البسمة.

في عام تعلمت الغزل والتلفيف والسقي والتمشيط ودخلت شركة جدتي وعمري ثمان سنوات. وبدأت كلما نزلت إلى فاس تقتني بأرباحي قطعة من جهازي أو حلية تنفعني على حد قولها. منذ الطفولة يلحوننا للنكبات.

أنا معتكفة في هذه الحجرة وذهني لا يتوقف. ويقول الجيران: «التفكير شيمة الأذكياء» نميمة. أنا أعرفهم. سامهم الفقر أرذل النَّزعات. ومنهم من يقول، سمعتهم يقولون ذلك: «مستوحشة، منطوية، تشح حتى بالكلام.» لا يفهمون شيئا. جئنني ولُكْنَ أخبار البيوت بشكل مقرف. تصاعد فيّ الألم والتوتر. ضقت ذرعا فلبست جلبابي وخرجت. مرغت العرف في الوحل. سيقال الآن: «شيء بعقلها لا يدور» وفي أدهى الأحوال أوصف بالجنون صراحة. فليكن. لم أعد قادرة على

المداراة والمراعاة والحياء وأكسبني ذلك قوة عجيبة. لو أن المحنة جاءت باكرا!

لن يلاقي الكلب جزاءه. وغدا تصل الورقة وما يخوِّله القانون. القانون لا يخول شيئا. كأنني تلميذ خائب تُوِّجت سنوات مرارته بالفصل الشنيع. ماذا يفعل؟ ماذا أفعل أنا؟ لو أن عقلي يهديني! ولكن لأي شيء في هذه البلدة الميتة؟

ها قد قمن إلى المكانس. لا يعلنّ الهدنة أبدا. من شروق الشمس تستولي عليهن حمى النظافة. يوشكن أن يغسلن حتى السقوف. ويوم الغسيل لا تبقى خرقة لا تمرّ عبر الماء والصابون. يذكرنني بأمي.

اكتشفت أنني لم أزر بعد أمواتي. وحين سمعت خطبة الجمعة في الراديو اشتريت خبزا وتينا جافا وذهبت إليهم. ناس تخرج وناس تدخل. هناك من يبيع الشمع ومن يرتِّل القرآن. وزعت الخبز والتين. وجدتهم جميعا إلا جدي. ودلني حارس عليه. فاجأتني زهرة سوسن نبتت وحدها في حوضه الترابي فمضيت أتأمل بذهول العود الصلب والورق الرقيق يمتد مستويا أو معقوفا بدرجات لونه البنفسجي المطعّم بالأبيض والأصفر، في لفافة من أوراق متينة، شديدة الخضرة ومدببة، كأنصال السيوف. جلست وداخَلَني هدوء عجيب. الموت له جاذبية. لماذا يخافه الناس؟ لم تعجبني القبور المشيدة. مدينة سكانها أموات. وبدت من بعيد سطوح البيوت داخل الأسوار، بيضاء،

مستطيلة مثل هذه القبور. تلك أيضا مدينة. ولم أدر ما الذي دفعني إلى عقد المقارنة.

اصفرَّ ضوء الشمس فقمت من مكاني. سَرّني الانشراح الطارئ ولم أشأ أن أضيعه. انتهزت ما اعتراني من حيوية وقمت بجولة في البلدة. لم أترك دربا ولا زقاقا. سوق الحطب، سوق الحبوب، سوق القماش، الحدادون، بيت جدي. وقفت عنده وأطلت الوقوف. دخله أطفال ومراهقون ونساء ورجال، ما يشكل ثلاث أسر على الأقل. النازحون من الجبل. الينبوع العمومي يتدفق في إطار البلاطات الخزفية العتيقة. كان ماؤه أوفر. غسلنا منه الدار والثياب وسقينا الصوف وكرمة العنب والبقرة. الآن كأننا لم نمرّ من هنا.

نسيت نفسي حتى تقدم الليل. يجب ألا أطيل الوقوف في هذه الأزقة المعتمة. انطلقت وتسكعت. الإنارة قليلة وضعيفة، من عهد جيوش الاحتلال. مصباح لكل درب على رأسه دائرة معدنية بيضاء كصحن الصاج أو كالقبعة، يشرئب من حروف الحيطان التي تنبت الحشائش في تربتها الحمراء. والقناطر كأنها من عهد إدريس الأول. قناطر بالية للدواب والمشاة. والنهر مجراه مظلم، مفزع، وخريره يُسمع في سكون الليل من بعيد. بلدة تنام مع الدجاج وتسلم أزقتها للقطط بعد صلاة العشاء. يجب أن أمشي وأتمتع بالصفو فأنا أعرف أن الكرب راجع لا محالة .

من هذا الطريق مرّ موكب عرسي وانتهى في ذلك البيت، بيت العبودية الذي حسدوني عليه. حسدوني على العريس أيضا. معلم اللغة الفرنسية شيء ذو بال في ذلك الزمن. لم أعرفه، أما هو فقد رآني في باب بيت جدي أتفرج على موكب موسيقي فأرسل يخطبني. بنى اختياره على طول شعري وسواد عيوني. عرضوا عليه الكثيرات قبلي ووجد لكل منهن عيبا. قصر، طول، نحافة، كثرة الأهل... قال لهم أبي:

-البنت بنت جدها.

وزوجوني من دون أن يطلبوا رأيي. وجاءت هداياه في الأعياد حتى قيل العرس بعد أسبوع فاجتاحني الجزع.

وبدأ الماراتون. إعداد الجهاز، صنع الحلوى، الحمام، النحر، الحناء، وصول هدايا العريس، ليلة الزفاف. سبعة أيام كنت أتحاشى جدتي فيها وأتوارى لأبكي. وحين خرجت بين من يزغرد ومن ينوح عاودني إحساس مررت به منذ سنين. كنت مع جدتي في ضريح المولى إدريس الأزهر، نأكل خبز شعير وزيتونا ورأيت جثمانا على خشبة في قماش أبيض عليه غطاء أسود فداخلتني الرهبة والتقزز ومضيت ألوك الطعام ولا أحس بطعمه. وعلى ذلك النحو خرجت من بيت جدي. استغرقت المسافة وقتا طويلا وجدت خلاله في فمي طعم الزيتون وخبز الشعير. هل يعلم القلب؟ وانفضّ الماراتون وقضت أمي

وجدتي أياما في فراش المرض. كنا حمقى أو كنا نعاني نقصا في الترفيه.

مضى عليّ عام في بيت أهل زوجي لا أغادره. ولم يأت النسل فبدأ الطواف على الأضرحة وحرق البخور وتعليق الأحجبة وتجرع الأعشاب. لو أعطوني السم لشربته. وحين يئسوا انحطت معاملتهم. وثبت عندي، من كثرة التكرار، أنني أنا السبب فرزحت تحت وطأة ذلك إلى يومنا هذا. ترى هل أنا السبب؟

لو سَعَف أمه لطلقني من عامي الثاني، فالعقم سبب كاف في مجتمع لا يعبأ بالمسببات، أو لتزوج وذلك أضعف الإيمان. لم تعش لتنعم بالنصر الماحق. كان حكمها في حياتي كحكم الإقطاع. فيه كان علي أن أصحو وأحمد لها نعمة إنجابها ابنها. عهد بائد. كيف تحملت؟ أنا نفسي أتعجب. لو كان لي عقل اليوم لبصقت في وجهها وصفقت الباب وخرجت.

ويوم قال:

- تقرر أن أنتقل إلى الدار البيضاء.

صكت وجهها وشقت ثوبها واتهمته بالعقوق. وتذكرت أنا ما دأبت أمي على ترديده: الصبر مفتاح الفرج. وحين تركت البلدة كنت نشوى بالانعتاق.

شيعونا إلى خارج الأسوار وغابت السيارة العمومية وهم يلوِّحون وفيهم من يجفف دمعه. قطعنا المسافة في ثلاثة أيام. سيارة تسير بالفحم في سرعة حسبناها وقتذاك فائقة. غيرنا السيارة في فاس والرباط وجربت لأول مرة النزول في الفنادق. بناية من طابقين، غرفها تحدق بفناء واسع، والصحن للبهائم. الگراج إن شئتم. ولعل التشبيه يعود ليوم اقتنى أبي شاحنة صغيرة ليحمل عليها الزرع والزيتون. حدث جاءت البلدة تشهده وأبي يبتسم مزهوا. قال جدي:

- آلة من اختراع الجن الأزرق!

فرد عليه أبي:

- لو أنها تأكل التبن!

الدار البيضاء بياض وزرقة. قلب المغرب النابض، قلبه المفتوح. محطة النازحين وموطن الناس أجمعين. عمارات وأضواء وسيارات. عالم جديد. عالم عجيب. بيضة حضنتها فلول الاحتلال وتكسرت عن غول كبر بسرعة ليأكلها. في أيام عرفتها. أجفلت منها ثم أحببتها. سيدي بليوط، الميناء، الكاريير سانطرال، ابن مسيك، الشوارع، المتاجر، وتلك السهولة في ربط العلاقات والصداقات! تربة طيبة تنبت فيها كل بذرة. أمضيت فيها عشر سنوات أخرى. مراحلي تعد بالعقود. وعشت وقدمي على الأرض ورأسي في السماء.

جبلتني الدار البيضاء جبلة أخرى ولكنني بقيت لا أعرف كيف أقول لا حتى جاء الطلاق.

ماذا عندي من أوائل ذلك العهد؟ أفكر ولا أجد. أيام الرخاء تمر بنا وكأنها لا تعنينا. تلك أيام تشابهت. عشت فيها موزعة بين البيت وبيني وكل همي تغيير مجوهراتي واقتناء أصناف القماش. والحقيقة أن أسواق الدار البيضاء كانت تغريني. تلك هي الأيام التي كانت أناقتي فيها «مضرب المثل» كما قالت المرأة التي عاصرت أمي وكانت تشهد عوداتي المظفرة، حين كنت أنقلب في خواتم وأقراط يسري خبرها فتأتي البلدة لتحمد لي في السلامة وقصدها رؤية خواتمي وأقراطي.

بعد ذلك جاءت المقاومة ولكن تلك حكاية أخرى. من أجلها بعت شجرات الزيتون والمجوهرات وكل شيء، عن طيب خاطر. كان النضال قد حل في قلبي محل الذهب واللؤلؤ. الآن سلوتها تماما، أعني المجوهرات لا المقاومة ولم يعد لها في نفسي سوى النفور. سبحان محول الأهواء!

وعلى ذكر المقاومة أعتقد أنني لم يكن لي في البدء موقف أو تراه كان؟ ليس في ذاكرتي عن هذا الأمر إلا الضباب. لا حادث ولا صورة ولا شيء يمكن الاستعانة به لتكوين فكرة محددة. وأغلب الظن أنني كنت غافلة ما دمت قد انشغلت بنفسي إلى الحد الذي أصبحت فيه مضرب الأمثال في

الأناقة. لابد أنني كنت غافلة. على أنني اتخذت موقفا قبل انضمامي إلى المقاومة بسنوات. أذكر المناسبة واليوم، يوم مذبحة الدار البيضاء لا ينسى. يوم أسود ما ذكرته إلا ووجدت تنمّلا في جسدي. رأيتهم، جنود اللفيف الأجنبي، يخرجون من ثكنة قريبة من بيتنا ويطلقون نيران رشاشاتهم على المارة.

ما أطول ما عشت وتلك الطلقات في أذني وأمام عيني رجال ونساء وأطفال يتساقطون. فيما بعد رأيت الجثث على الأرصفة كصناديق القمامة ولكنها لم تفعل فيَّ ما فعله حادث ذلك اليوم الرهيب.

وجدتني في شقة لا أعرف إلى الآن موقعها. هجرني الوعي فتصرفت كمن يمشي وهو نائم ثم خفت الصدمة ولكنها خلفت شعورا مدمرا، مشبعا بالمأساة كشعور من يفقد إنسانا عزيزا، شعور الرافض العاجز. من يومها فقدت التعلق بالحياة، ببريقها، بكل ثيابها ومجوهراتها. كان يجب أن يتغير الوضع وإلا فإنها لا تستحق أن تعاش.

بدأت الحادثة بمعاكسة أحد جنود الثكنة لامرأة مغربية ولعل مواطنا تدخل لحمايتها فرماه الجندي بالرصاص. وسرعان ما تجمع المارة وتحول التجمع إلى مظاهرة والمظاهرة إلى مذبحة. مئات العزَّل يذهبون في بلادهم ثمنا لنزوة مرتزق!

ذكريات يمسك بعضها بيد بعض ولكن ماذا أفعل في هذه

الأزقة المقفرة في هذا الوقت من الليل؟ عدت إلى نفسي وعاودني المرض. أمامي أشباح خارجة من المسجد، بينها من يسعل في النسمة الندية، ومن حولي يتنفس الفجر ويظهر نوره الأزرق وتعم البلدة رائحة الصباح.

– 3 –

«ستصلك ورقتك وما يخوله القانون». يا للوقاحة! المراكز تأتي بالفجاجة والمناصب لا تغير إلا الضعفاء. كأنها تدوم. غدا يفيق على واقع في مرارة واقعي وينهار. هل كنت أعاشر عدوا؟ لولا المنصب لمت وأنا لا أعرفه.

ووصلت الورقة وما يخوله القانون. أخطرني البريد فذهبت وانتظرت في طابورين حتى تسلمتهما، الورقة فالحوالة. هل يوجد في الدنيا إذلال أكبر؟ استبد بي الحنق حتى شعرت بألم في رأسي. وطلبت استمارة كتبت فيها اسم زوجي وعنوانه ورددت إليه مبلغه. ألم أتعلم الكتابة في الدروس الليلية؟ حاربنا الأمية عند من يجهلون القراءة والكتابة وتركنا المثقفين. لفّني الضباب، كأنني أعيش الصدمة من جديد وشعرت بالبرد وخرجت كأنني خارجة من بيته مرة أخرى وتهت من جديد ثم وجدت مقعدا في الشمس جلست عليه. بعد ذلك عرفت أنني

في حديقة عمومية تركها الفرنسيون. وجاءت كوكبة من الأطفال وضجوا من حولي. الحياة عفن والناس ما تزال تتناسل! «الأطفال هم الدليل على أن الله لم ييأس بعد من الإنسانية.» لا أدري من قال ذلك. سبحانه! ما أوسع صبره!

وتَّرني الأطفال فرجعت إلى البيت. كآبته ازدادت وثمة صقيع يسري عدا صقيع الجو. كشطت الجلباب وكوَّرته بين يدي وجلست. رائحة الحجرة كرائحة الكتب القديمة وحجمها مقبض. خير لي أن أخرج. ذكرت صخب الأطفال ووضعت الجلباب بالقرب مني برفق. السلاوي[1] من جديد! من الذي اخترع الراديو؟ وترامت إليَّ أصوات شجار. هذه الدار لا تهدأ أبدا. هل هذا أيضا مكتوب عليَّ؟

لبست الجلباب وخرجت وضربت في البلدة على غير هدى. المزاد العلني في سوق السلع القديمة متأجج داخل الحلقات. هل نحن في يوم الخميس؟ سوق القماش وتاجر يتفحَّش مع امرأتين تستخفيان في غطاءين من الصوف. هذه الأسواق تخنق الأنفاس. أنا التي صرفت عمري في المتاجر أقول ذلك. التسوق الآن له أصابع من حديد .

«أناقتك كانت مضرب الأمثال». قالتها واحدة من سكان الزقاق القدامى. عاصرت أمي وكانت تشهد عوداتي المضفرة

(1) الحسين السلاوي. مغني مغربي اشتهر في الأربعينيات والخمسينيات.

حين كنت أنقلب إلى البلدة في مجوهرات يسري خبرها. اليأس يفضي إلى التخاذل. أدركت ذلك وأنا أنظر إلى نفسي على قول المرأة من دون أن يفجعني مظهري.

تركت البلدة وعبرت الساحة فالمحطة. المقبرة صامته صمت الأموات وهناك صعاليك يدخنون الكيف. كسر أحدهم قنينة خمر على واحد من شواهد القبور فنكصت وأطلقت ساقيّ للريح ثم دخلت البلدة وأنا حانقة على نفسي وسرت صوب الضريح.

وجدت عند الشيخ نسوة. انصرفن فزحفت إليه وقلت وأصابعي تعبث بكم الجلباب:

- زاد الضيق يا سيدي.

فقال بهدوء عجيب:

- اهدئي وقولي لي. ماذا حدث؟

- مكثت برهة حتى غلبت دموعي ثم بلعت ريقي وقلت:

- وصلت الورقة.

- ألم تكوني تعرفين أنها ستصل؟

- بلى ولكن...

ساد صوت رجل كفيف يرتِّل القرآن فاستسلمت له حتى ذهب عني الروع ثم فاجأت الشيخ:

- ما مستقبلي؟

- قال بهدوئه وهو يخطط بريشة من قصب:

- المؤمن لا يعرف الخوف ولا القلق قلبه.

- نعم، نعم ولكنني سأموت جوعا.

- في دار الإسلام لا أحد يموت جوعا.

- لا مورد لي، البتة.

- في البلدة مصنع للزرابي.

- لا أجيد النسيج.

- طرزي عقد القفطان.

- نظري ضعيف.

- ستصدأ نفسك إن ركنت للخمول.

أغزل الصوف. تذكرت وزففت إليه الخبر فقال:

- أرأيت؟

نسيت أنني أغزل مثلما نسيت اسم الشيخ، مثلما أنسى في أي يوم من أيام الأسبوع نحن، مثلما أضيع في الطرقات. يجب أن ألم شتاتي. لم أمسك مغزلا منذ ثلاثة وعشرين عاما. لم أكن بحاجة إليه. وفي السنوات الأخيرة رمينا المغازل وانشغلنا بالنضال. متى انضم هو إلى المقاومة؟ لا أعرف. ويوم اكتشفت ذلك صكتني المفاجأة كيوم جلس وقال: «ستصلك

ورقتك وما يخوله القانون». غير أنها كانت مفاجأة أعقبتها البهجة لا الكدر. عن طريقه قمت بمهمات من أجل الوطن. ما الذي يقوم به الوطن الآن من أجلي؟ قلت للشيخ:

- ذهب النضال هباء.

فتوقفت ريشته ورفعها في وجهي قائلا:

- إن الله لا يحب عملا يتبعه المن والندم.

- ما جدوى المن؟ ولو كان علي أن أعيد كل شيء الآن لأعدته.

بالصدفة بدأ عملي الوطني، يوم طرق باب الشقة ولم يبق على موعد منع التجول سوى دقائق. ما وراء طارق هذه الساعة؟ فتح زوجي وأنا خلفه فانعكس الضوء على وجه رجل وجلاه، وجه ضامر، غير محلوق، ضارب للون الباذنجان. بدا داخل قلنسوة الجلباب الخشن، الفضفاض كقبضة اليد. ذهل زوجي فنحاه الرجل جانبا ودخل ثم توقف في الممر قائلا:

- لم تعد المرأة لحد الساعة.

وتحركنا نحو الغرفة وأغلقت مصاريع النافذة ودخلا في أعقابي، الرجل أولا. أزاح عن رأسه القلنسوة وقال حالما جلس:

- سأسلم نفسي.

وقف زوجي مستندا إلى إطار الباب ووقفت بجواره وجاء

صوت الكلارينيت يعلن موعد منع التجول فأطفأتُ الكهرباء وأشعلت شمعة وأصوات المصاريع تنطلق في جلبة وسرعة كالقذائف وسكت الشارع بغتة كأنه فقد النطق. وقال الرجل:

- جاؤوا إلى زوجتي. اعترف علال. أعطاهم وصفي المميز.

أشار إلى ركبته ونظرت إلى حيث أشار فرأيت تحت الجلباب طرفا من ساق آلية وارتدّ بصري بسرعة. في غمرة الدهشة لم ألاحظ أنه أعرج. وبغضب خفف ما يكابد من حرج نادى أيام ديان بيان فو وبصق عليها قائلا:

-أعطيت ساقي لفرنسا وبها تهتدي إلى اليوم. يا للمآسي التي لن يذكرها أحد لأنها تقع لنا نحن!

حسر جلبابه وقال بحدة:

- هذا هو كل ما آل لي من «لاندوشين».

نظرت إلى الأرض في حرج كأنني مسؤولة أمامه عن فرنسا. لم يزد على ذلك وقتها ولكنه منذ بداية الاستقلال أسهب في سرد التفاصيل وترديدها. ليست فيتنام عنده سوى الهند الصينية إلى اليوم. يذكرها وترق ملامحه ويغلف الحزن صوته. له بها ابنتان لا يراهما هو الذي شاءت له القدرة أن تكون زوجته الحالية عقيما. يكاتب ابنتيه بالفرنسية ولكنه حين يخوض في هنده الصينية لا يتكلم إلا عن الأدغال التي تتشابك

كالسوالف الجَعْدَة. يتكلم عن السماء الملبدة بالدخان وعن الإنفجارات والسلاح والزواحف وعن المعسكرات والأطباء والممرضين وعن الساق التي كان يمشي عليها حين كان جندياً في لواء تحت إمرة ضابط مغربي ولم يجدها حين أفاق، لكنه لا يتكلم عن ابنتيه أبدا. مع ذلك نعرف ويعرف أننا نعرف ويواصل الجميع التمثيل ببراعة فائقة. ابنتاه والساق قرحتان تركتهما حرب الهند الصينية في قلبه. ابنتاه اللتان ستموتان فيتناميتين من دون أن تريا أرض أجدادهما المغاربة وهذه الآلة التي يمشي عليها في النهار ويمدها في الليل على حشية أمامه كالجثة، سببان كافيان لحفزه في كل لحظة على مقت فرنسا وقتالها حتى الموت.

أكان ذلك هو الدافع الحقيقي لانخراطه في المقاومة؟ هل قاوم مثلنا مدفوعا بالشعور الوطني وحده؟ لا أدري. صراحة، بعد ما كان ليلة جاءنا في جلبابه الخشن ومع أنني سمعته منذ بداية الاستقلال يؤكد، كأنه يشعر بشَكّي، أنه كان سيقاوم حتى ولو لم تكن الساق، أقول صراحة لا أستطيع أن أجزم. ما حدث تلك الليلة الكالحة لا يشير إليه أحد ولكن كلما خضنا في النضال وكان الفقيه حاضرا لا أملك إلا أن أفكر فيه وأشعر أنه يعلم بما يدور في رأسي.

ليلتها، عندما قال عن ساقه إنها كل ما آل له من الهند الصينية، رد عليه زوجي محتدا:

- إنس الساق الآن.

فقال الفقيه (عرفت اسمه لاحقا):

- أنا بها أكثر عرضة للخطر.

- وتترك مخبأك؟

- أبصرني الجيران وتقولوا في المرأة فطلبت مني الرحيل. من يلومها؟ امرأة زوجها في المعتقل. ماذا كنت ستفعل أنت؟

- نعرف. لكن ماذا عليك لو تريثت قليلا؟

- ماذا كان علي وماذا لم يكن علي؟

قالها الفقيه بتهكم قبل أن يواصل مستدركا:

- كان علي أنني لن أتحمل. انظر إلى علال. كنت أتصور أنه لا يقهر. كان إذا تكلم عن الوضع اصفر لونه وتجمد وراء المقود. وإذا مررنا بمزارع المعمرين اهتاج حتى تحيد بنا الشاحنة. ما أكثر ما كان يردد: «هذه المزارع لي ولك ويتمتع بها أجانب بينما أنا وأنت نقضي عمرنا على الطرقات نوزع صناديق المشروبات.» وعندما قررنا التحرك وأقسمنا على إحراق زرعهم وجئتك لتزودني بالتعليمات، كنتُ مقتنعا، على حد قول علال، أنني أولى بالموت ممن يموتون بالمئات لأنني أدرى منهم بما تعنيه كلمة «مغرب». ولكن خوفي على الخلية. هو يعرفني وأنا أعرفك. هذا هو ما كان عليَّ.

تشرب صوته بالخطورة وسامنا قلقا متناميا وتركنا نهبا له.

وجاء صوت باب العمارة وهو يركل. ولو دخل علي جدي في تلك اللحظة ما ارتعت ذاك الارتياع. ذرعنا الغرفة في فوضى وسأل الفقيه:

- أين أختبئ؟ تحت السرير؟

توجه زوجي نحو باب الشقة وفتحه فانطلق الفقيه في الظلام لكنه لحق به وشده قائلا:

- إلى أين؟

- السطح.

- والسينغاليون؟

ما كان ليذكرهم. قصد جنود اللفيف الأجنبي. هل كانوا سينغاليين فعلا أو أن اللفظ للدلالة على لونهم الأسود؟ لا أدري. المهم أن زوجي تنبه إلى وجودهم على سطوح المدينة فأنقذ حياته ببديهة عجيبة.

عاد الفقيه أدراجه ونزل زوجي وهو يقرع أعواد الكبريت. فتح باب العمارة وسمعنا ما دار من حديث:

- من يسكن هذه العمارة؟

- لا أحد سواي.

- ما اسمك؟

ذكره لهم فقالوا:

- لقد أخطأنا. العمارة التي نريدها في النهج المقابل.

سمعناه يصفق الباب ولبدنا في الظلام. في حياتي لم أعاين معجزة بهذا الشكل. دخلنا في صمت ثم سمعنا في الخارج صوتا نحيلا يقول بنبرة باكية:

- لا أعرف أين هو؟

فانطلقنا إلى خصاص النافذة وتزاحمنا عليه. امرأة خرجوا بها سافرة. بدت لنا من مرصدنا وسط القبعات. كل شيء صامت. وسقط في روعي أن كل هذه النوافذ المغلقة عيون.

- لا أعرف أين هو.

صفعها أحدهم وقال بالعربية وهو ينطق الراء غينا:

- في المعارف[1] تعرفين.

- إنه عند ابن عمه في الكاريير سانترال.

ألقتها كمن يلقي بجمرة التقطها وهو يحسبها شيئا آخر. لم يتكلم أحد. ساقوها إلى سيارة جيب وانطلقوا بها. وغاب صوت المحرك فسمعنا أطفالا يبكون في بيت المرأة وظهرت في رأس الشارع دورية اختلط وقعها ببكاء الأطفال.

---

(1) أحد أحياء الدار البيضاء. كان به مقر شرطتها المركزي حينذاك.

تركنا النافذة مذهولين. أية قدرة سخرت هذا المشهد في هذه اللحظة؟ ليلة المعجزات. بقينا كذلك إلى أن قال زوجي:

- تسلم نفسك؟ ها؟ ألم تر؟ بصفعة أعطت زوجها.

نضح وجهه بالكراهية وتحّول لون الفقيه القاتم إلى بياض وبرز رأسه الصغير في صوف الجلباب كرأس سلحفاة وقال وظله يعكسه على الجدار ضوء الشمعة:

- ليت لي القدرة على السوط. أحذرك.

تهديد أو استنجاد؟

- ... سأُقِر.

ينسى الأحمق أن الفرد قد يُضحى به لحماية الجماعة كما نسي السنيغاليين منذ حين.

- ... سأعطيهم اسمك... واسم المرأة التي أخفتني في بيتها.

ازادت الكراهية وضوحا في وجه زوجي وخيل لي أنه يريد أن يقتله. وحدق فيه حتى أربكه. صحيح أن العجز يدفع إلى التهور. وقال الفقيه في انكسار:

- جدوا لي مخرجا.

فقال زوجي:

- سنفعل.

نمت تلك الليلة نوما محموما ومع رفع منع التجول خرج زوجي. وجدني عند حوض المطبخ حين عاد وقال:

- سيسافر معك إلى سوق الأربعاء متنكرا في زي امرأة. غدا يوم السوق هناك. اسألي عن رحال العطار. رجل طويل، نحيل، يعتمر العمامة الشرقية وسراويل الگولف وله أصبع سادس في يده اليسرى، كالورم. كلمة السر هي «السماء زرقاء».

لبست بسرعة وجئت الفقيه بجلباب ونقاب ووجدتهما يتعاونان على تركيب الساق. وقال له زوجي:

- سيعبر بك رحال الحدود إلى المنطقة الإسبانية من هذه الليلة.

ومد له أوراقا مالية وألبسناه الجلباب والنقاب وخرجنا.

احتللنا مقعدينا في السيارة العمومية وودعنا زوجي لكن السيارة لم تتحرك. ستتأخر ساعة أو ساعتين أو يوما أو يومين. هذا حالنا في المستعمرات. احتج الركاب وجاء رجل يحمل سجلا فقال له شاب من الخلف:

- متى ستطلقون سراحنا؟

فرد عليه الرجل مستفزا:

- عندما يأذن الله.

زاد قوله في التوتر العام وقال الشاب:

- لماذا تحددون مواعيد الذهاب إذن؟

ها هو ما كنت أخشاه. العيون مشدودة. ينتظرون بدأ المعركة هم الذين كانوا يتحرقون للانطلاق منذ حين ولا أحد يلعن الشيطان. تطوعت ولعنته وكأن الرجل كان ينتظر ذلك. ضم سجله ونزل وقالت امرأة:

- نخرج وقتما نخرج. ما هي ساعة أو ساعتان؟

فقال الشاب:

- مازلنا والحالة هذه في حاجة إلى الاستعمار.

غمغمت السيارة بالاستنكار وسُحب غطاء السقف من جانبيها ثم تحركت والباعة يلاحقونها حتى اندسّت في حركة المرور فظهر عمال يطلون الكتابات المناوئة للاستعمار وثكنات ودوريات.

جلس الفقيه جنب النافذة وشخص ببصره إلى الشوارع والمتاجر والسابلة. واضح أن به حنينا إلى الناس والدنيا وأن لكل شيء في عينه جاذبية، هو الذي ظل محبوسا في عِليِّة زهاء شهر. حكى عن ذلك في ما بعد. قال إنه كان ينام ويصحو بلا نظام ويقضي لياليه مسهدا، يقلب بين محطات الإذاعات ويمضي مع الفجر يراقب اتضاح الأشياء من حوله بالتدريج ويستمع إلى الأصوات الآتية من الشارع عبر السطح ولا ينسى أن يؤكد على حدسه السياسي فيقول:

- سمعتهم يعلنون عن برنامج إذاعي لاختيار الأصوات الغنائية الجديدة، يجولون به عبر المدن. سموه «غَنِّ يا شباب!» يغني الشباب في الوقت الذي يجب أن يحمل السلاح؟ أدركت أنهم إنما يريدون شغل شباب الأمة. وتأكدت فراستي عندما جاءت رقية (زوجته) تزورني وأخبرتني أن قنبلة انفجرت في أولى تلك الحفلات في سينما الحمراء بالرباط. قلت لها إنني كنت أعلم أن ذلك هو ما سيحدث. قالت إنهم يسمون مفجري القنبلة إرهابيين. «يرموننا بالإرهاب وهم بؤرته». قلت لها ذلك.

وينظر إليها مبتهجا ويسألها:

- «كاينة وإلا ما كايناش»؟

وتصادق على قوله فيزداد ابتهاجا.

أما ونحن في تلك السيارة إلى سوق الأربعاء فلم أر وجهه لأقرأ ما عليه. أحسست منه فقط معاناة الموقف فلم أوجه إليه كلمة واحدة طيلة مسافة الطريق وهكذا اختلى كل منا بهواجسه والتفكير في صمت بهول المخاطر.

قطعنا شوطا إلى الرباط فبدت الكروم على جانبي الطريق في صفوف تظهر بينها حمرة التربة، وسطها بيوت المعمرين بسطوحها المعقوفة والمبلطة بالقرميد الأحمر. وفجأة انخفضت سرعة السيارة ومالت إلى جنب الطريق وسكت محركها فاشرأبت الأعناق ووقف البعض نصف وقفة وقيل:

- عطب.

- تفتيش.

- أمامنا رتل من السيارات.

استبد بي القلق وجلست أكابده حتى قال السائق من فوق كتفه:

- كتيبة.

فتنفست الصعداء. ونزل البعض والشاحنات العسكرية تمر فيبدو على متنها جنود مدججون بالسلاح دعا عليهم رجل عبر المصراع الزجاجي. ومرت الكتيبة وأطلق السائق النفير فخرج الركاب من الكروم وفي أيديهم عناقيد عنب أبيض.

سرنا بين فدادين طماطم محفوفة بالقصب حتى الرباط. ونحن نعبرها لمحت نظافتها وبياض مبانيها وخضرة الأشجار والسياجات المورقة والمزهرة على حواف أسوار الدور والإدارات. تحفة مغربية أوروبية على شاطئ البحر. عرفتها أكثر بعدما جئتها بالمناشير. وجدتها صغيرة وأنيقة. في ذاكرتي منها لحد الآن ثلاثة معالم، المشور والنهر والمدينة القديمة. كان الأول فسحة رحبة تنمو فيها الحشائش البرية على سجيتها تحت الأشجار ويقصدها الناس يوم الجمعة لمشاهدة الموكب الملكي في طريقه إلى المسجد وتناول طعامهم في الهواء الطلق. وكان النهر يتميز بجسر عائم وحافلات صغيرة تتردد بين

ضفّتيه وبين باب الأحد كالخنافس طوال النهار، تنقل الناس مقابل عشرين فرنكا[1]. أما المدينة القديمة فكانت وستظل كامنة، كالنواة، داخل الأسوار بمتاهة دروبها التي يفضي بعضها إلى بعض .

سحرتني الرباط وربطتني بها مشاعر حميمة ولم أتصور أن يأتي يوم تمتزج فيه عندي بالألم. كنت آتيها بالمناشير وأعود على الفور وأحيانا أقضي الليلة في بيت الحاج علي وهو وطني صنعته الحدادة. قوي البنية ودائم الإنشراح. تتجدد سعادته مع إبداعاته وتتوهج كجمرات موقده تحت نفخ الكير. حبه لعمله لا يعدله إلا حبه لوطنه. وعدا المناشير وإعداد الطعام للمعتقلين، أتصور أنه كانت له نشاطات أخرى سرية. بعد الاستقلال عينوه قائدا في إحدى جهات الجنوب، منصب أسند لكثيرين ممن عرفتهم ومن بينهم الفقيه كما سيأتي.

كان القائد هو حاكم القبيلة وكان يعيش عيشة الأمراء وينتمي إلى فئة الإقطاع التي كانت تتصرف في رقاب الناس وأموالهم بتواطؤ مع الحماية التي كانت تتوخى من ذلك تعديد مناطق النفوذ لإضعاف السلطة المركزية. وكان القائد شخصية مرموقة، تقترن في أذهان الناس بالغنى والنفوذ والهيبة.

كيف أثّر للمنصب في الحاج علي؟ كيف تلقى التغيير؟

---

(1) ما يعرف اليوم بالستتيم.

زرناه لآخر مرة وهو في الجنوب فوجدته فاترا، متوترا كأن سعادته خمدت كما خمد موقد ورشته هناك في الرباط القديمة. أين ذهب الانشراح؟ والهمة؟ والحيوية؟ يومها علمت أن معنويات الإنسان كمبادئه «أكثر شيء عرضة للتلف». كما قال شيخ الضريح.

قلت إننا زرناه لآخر مرة والسبب أننا اختلفنا بعد انشقاق الحركة الوطنية فوجد كل منا نفسه في جهة. ببساطة انحل ما كان يبدو علاقة عمر بعدما تحول رفاق الكفاح إلى خصوم وقضي الأمر. السياسة، تلك اللئيمة، تدخل بين الناس وتفعل ما لا يفعله الشيطان. بيد أن التباعد كان حاصلا لا محالة فقد تبدل الناس وانقطعت روابط الأخوّة الخالصة من ذلك النوع الذي ربطنا بآل الحاج علي.

في العام الأول لتنصيبه وصلنا خبر استقالته فتعجبنا ولم نفهم. كنا قد سكنا الرباط. ونزلت إلى المدينة القديمة يوما فمررت بالورشة. وجدتها مفتوحة وضربات المطارق تتوالى وتتعالى في رتابة والحاج علي ينهال بالتناوب مع المتعلم على حديدة محمرة. وشعر بي فأقبل يمسح جبينه بباطن ذراعه. تفحصته خلف مئزره الجلدي بذراعيه اللتين شمر عنهما ووجهه المبتل بالعرق وضحكته النابعة من القلب فبدا لي كالزوج الذي يعود إلى زوجته بعد الطلاق. نظرت إلى النار والكير والشرر المتطاير فألحت علي الصورة. أقارن بينه في ذلك اليوم ويوم

رأيته في الجنوب فأجده كالسوقي الذي أفرغت عليه حلة فشعر بالاختناق ولم يتنفس الصعداء حتى عاد إلى أحلاسه. لاحظت أن الرجوع من القيادة إلى الحدادة لم يخلف لديه أدنى عقدة وأنه وهو يصول في ورشته ويجول، قائد أكثر منه في أي وقت مضى.

قبل أن تتحرك السيارة العمومية جاء رجل نابت اللحية يعصب رأسه بمنديل جيب ويغني بصوت بشع وهو يجهد نفسه ويضرب على صنج. وتأهبت السيارة للانطلاق وهو يتلقى نقود الركاب في صنجه ثم انطلقت ففتح الباب الخلفي وقفز في وسط الطريق.

توقفنا من جديد في القنيطرة فصعد سقّاء بقربته وملأ السيارة بصلصلة جرسه. ثم تحركنا فلم نلبث أن دخلنا الغرب وعبرنا نهره الذي يغرقه كل عام، فتوالت الفدادين ومغارس البرتقال المسورة بالسَّرْو حتى سوق الأربعاء. هناك تركنا السيارة وبها بقية مسافرين سيعبرون الحدود إلى طنجة.

نزلنا وأجلنا النظر. لمحنا السوق من بعيد وعبرنا الفدادين الغبراء التي تفصلنا عنه، تلحق بنا وتتعدانا عربات المتسوقين. ومرت سيارة لاندروفر عليها علامة أَسبرو، في أذيالها غبار وموسيقى وأطفال أطلقوا سيقانهم للريح.

وعاد الأطفال على مهل وعلى جباههم أهلة أسبرو الورقية ونحن ما نزال نخب. الشمس تصب النار واللظى مختلط

بالغبار والناس في حيوية، كأن متعة السوق في الحر والغبار. مررنا بامرأة منقبة تبيع مبيد الحشرات. كلامها بليغ. صورتها ما تزال أمامي. قبلها كنت أحسب أن البلاغة والأمية لا يلتقيان. ومررنا ببائع حلوى يشق الحشود وينادي: «أمولاي ادريس!» كما مررنا بدلال على كتفه لحاف ملون ثم وجدنا أنفسنا أمام خيمة عطار عنده عجوز تشتري عقيقا أسود. يرتدي سراويل الغولف وعلى رأسه يلمع حرير العمامة الأصفر. قال للمرأة:

- إنك لم تدفعي رأس ماله يا أميمتي.

ورفع العمامة ومسح صلعته بيده اليسرى فبدا أصبعه السادس. أعادت العجوز إليه عقيقه وهمت بالانصراف ثم عادت تقول:

- إسمع يا رحال...

إنه هو.

- لن أزيدك على ثمان عشر.

- لا فصال هنا، إنما سعر محدد.

- ما أصلب رأسك! هات.

لف العقيق في ورقة مكتوبة بحبر المدارس نزعها من كراسة ثم تناول النقود من العجوز والتفت إلينا فقلت له:

- السماء زرقاء.

قال:

- تريان كرمة التين تلك؟ انتظراني عندها.

أكلنا في ظل الكرمة طعاما اشتريناه من السوق ونحن ننعم بنسمة هبت علينا من الغرب ونتملى بحركة السوق وألوانه حتى انحدرت الشمس وشرع المتسوقون في الرحيل.

فرغ السوق وظهر رحال خلف بغلته فسار بنا شرقا في حقول محصودة، منثورة بحزم التبن والعربات تروح بالجموع. تخضب الكون بلون الشفق ورجَّع السكون ثغاء الضأن فسرنا في صمت تجلت فيه عظمة الخالق وغابت هموم السياسة. الأرض من حولي تمتد وتمتد كأنها بحر بلا حدود، كأنني أنا والفقيه ورحال والدابة أرواح من عالم آخر.

- وصلنا!

قالها رحال وانتشلني من أفكاري. أشار إلى دار يحدق بها الصَّبَّار وانطلقت علينا ثلاثة كلاب معفرة وأطفال فأمر الكلاب بالصمت والأطفال بالسلام. وقبَّل الأطفال أيدينا وكفَّت الكلاب عن النباح وأرخت رأسها وقفلت راجعة على رأس الموكب.

الدار بابها عريض، تتوسطها باحة متربة، مرشوشة بالماء، حجراتها كأنها دكاكين في ساحة القرية وهناك تنور ومربط عنده علف. دخلنا وأقبلت علينا امرأة على ظهرها رضيع وانحنت

تمد إلينا أناملها وتردها إلى شفتيها ثم ساعدت رحال على إنزال حمل الدابة وخلصتنا من جلبابينا. راقبتها وهي تتناول جلباب الفقيه ولا تدهش كأنها ليست المرة الأولى التي تجد فيها رجلا في زي امرأة.

لشدة الحر تعشينا في السطح. الليلة مقمرة وفي السماء نجمة فريدة. صمتنا حتى قال رحال:

- أما الشاي فنشربه بعد الاستقلال إن شاء الله. على أن حرماننا منه لم يقتلنا.

حرمناه على أنفسنا ضمن حملة مقاطعة البضائع الفرنسية. فيما بعد وجدتني في مجلس ضم رقية وصفية. أذان ظهر الجمعة يترامى إلينا والمصحف بين أيدينا ونحن نحلف على أن نقاطع الشاي حتى يرحل الفرنسيون. ما كنا لنشربه ولكن لتطمئن القلوب.

عاد رحال يقول:

- وهل متنا لأننا لم نشرب الشاي؟

لا، لم نمت. السماء الآن مزروعة بالنجوم والفقيه متكئ فوق فروة خروف، يتفرس في خمائل الدِّفلى المزهرة، المشرقة بنور القمر ويرنو إلى أشجار السَّرْو في المدى. راقبناه من طرف خفي.

وقال له رحال:

- ستفرج. سترى.

كشف وعيه بالواقع وأطبق الصمت فأوضح سمفونية الصراصير في صفاء ودفء هذه الليلة العظيمة. وجاء نباح بعيد ردت عليه كلاب رحال وقال الفقيه محتدا:

- بلادي يحكمها الأجانب وأنا هارب منهم إليهم والصراصير تعزف والأزهار تلمع في نور القمر.

عاد الصمت ومرَّ وقت حسبته طويلا ثم قام رحال وقمنا. تركنا الدار وجاء رحال بالدابة وساعد الفقيه على الامتطاء وركب أمامه وانطلق. وشيعناهما عند الصبار والمرأة تحمل رضيعها على وركها حتى غابا في الحقول.

خرجتُ والشيخ ووجدتُ الليل والمطر. وقال لي وأنا أنصرف:

- لا تنسي!

- لا أنسى؟

- غزل الصوف.

- نعم، نعم.

تركته يوصد باب الضريح ومضيت على مهلي في حين الناس تتقي المطر تحت السقائف أو تجري.

الحاج علي، الفقيه، رحال، زوجته، وآخرون،

صفية، رقية... وولتر. التقيتهم في درب النضال وأحببتهم. ذاك زمان! محال أن يتكرر. ذهبوا مع الاستعمار. لا، رأيت الحاج علي وجاءني الفقيه ورقية إلى الرباط. وقفا على سخافات زوجي فلم يعودا. والآن لا أحد يسأل عني. ولكن ما أدراهم؟ وحتى وإن دروا هل يأتونني في هذا الجحر وهم اليوم قواد وباشوات؟

سهرنا أنا والمرأة في السطح تلك الليلة حتى رأينا رحال راجعا عند الفجر. دخل بقامته المديدة وقال:

- أفلت صاحبنا.

ثم وهو يتطلع في ساعة جيبه:

- هو الآن في طنجة.

رجع الفقيه إلى طنجة بعدما عادت أرضا مغربية وصارت بناية الجمارك خرابة تعشش فيها الجرذان، لكن قلبي اعتصر تلك الليلة عندما عاد رحال ولازمني القلق وأنا راجعة إلى الدار البيضاء. أقول الحق لم أتصور أن يعود. وحين جاءتني زوجته وقلت لها:

-صدقيني يا رقية، سيرجع السلطان وسترحل جيوش الاحتلال.

لم أكن في الحقيقة مستيقنة. بعد ذلك حرضنا أنا وهي على الإضراب وجمعنا التبرعات وتعلمنا القراءة والكتابة... ويوم أحرقنا متجر بنحاس، يوم لا أنساه. خرجنا في حلتنا

السوداء. لبسنا الأسود حدادا على نفي السلطان، لبسناه حتى عاد. ويوم عاد خطرنا في الأبيض كالحمائم.

حملت سلة تبن بداخله زجاجة بنزين. يجب أن نضرب العملاء. أنذرناه وما زال يبيع السجائر. وجدنا درب الإسبان غاصا بالنساء، من تشتري ومن تبيع والخضر على الأرصفة وفي العربات. وقفنا على رأس امرأة تبيع الخس وأطلنا المساومة. بنحاس غير بعيد، تظهر منه قبعته خلف لوبوتي ماروكان. دخلنا وأنزل الجريدة وبانت لحيته السوداء فقالت له رقية:

– هات تلك المحفظة أ التاجر!

نصب السلم وارتقاه فأمسكتُ بعنق الزجاجة. نزعتُ الفلين وأملتها حتى تدفق البنزين وأشعلت فيها رقية عود ثقاب وألقيتُها بين الصناديق والأكياس وركضتُ خلف رقية. هي يقتلع جسدها الهائل من فوق الأرض ويندفع في كتلة واحدة وأنا، بوزني الخفيف أمرق كالسهم. ركضنا شوطا قالت لنا بعده صبايا:

– أركضا! سيلحقون بكما!

التفتنا ورأيناهم متدفقين. أمسك أحدهم بقلنسوة جلبابي ولكنها انفتقت وبقيت في يده. ودخلت قدمي في عروة قفة جريت بها حتى وجدت زقاقا نفذت فيه. إلى اليسار عربة عليها

سلطانيات وطنجرة يغلي فيها الحلزون فعطار فمقهى يبيع الحريرة. وإلى اليمين باب دار دلفت من فجوته وصفقته. وجدت في صحن الدار نساء يقشرن الخضر. قلت:

- أنا فدائية.

فتجمعن حولي وأخفين جلبابي والقفة وصعدنا إلى الطابق العلوي فرأيناهم من خلال شباك النافذة وبينهم نحاس وكلب بوليسي. قربوا قماشا من خياشيم الكلب، عرفت فيه قلنسوة جلبابي فانقلبت وقلت:

- يجب أن أخرج إليهم.

لكن النساء منعنني فرجعت إلى الشباك أحرّك رجلاً إلى الأمام وأخرى إلى الوراء. ما زالوا يسدون باب الزقاق وخلفهم زحام السوق والكلب يدور حول نفسه، يوشك أن يفقد عقله. جره أحدهم وهو يطلق كلمة داعرة فتبعوه وقلت للنسوة:

- هذا الكلب لا يعرف شيئا.

فقالت إحداهن:

- وماذا يعرف المسكين وسط روائح الحلزون والحريرة والتوابل؟

وضحكنا من قلوبنا ضحكة مسحت الهلع. تركت لهن

جلبابي وأعطينني جلبابا آخر وخرجت ولم أَرَهُنَّ بعد ذلك أبدا.

وجدت رقّية عند باب شقتي فجلسنا، أحكي وتحكي باندفاع. لله درها! أقدر من زوجها وأثبت. قيضها الله لي وإياه لأبدأ معهما كل ما صنعت. بعدهما تهاطلت عليَّ المهمات كأمطار هذه الليلة ونفذتها وحدي. لو عادت جدتي ووجدتني أشعل الحرائق وأنقل السلاح وأهرب الرجال لماتت ميتة أخرى. وهل كان ذلك لي أنا نفسي في الحسبان؟ أهّلوني، رحمة الله عليهم، لحياة من نوع آخر وسخرت من مخططاتهم الأقدار.

- لا، لن أقتل.

قلت ذلك لزوجي عندما جاءني ذات مساء بوجه صارم وقال حالما جلس:

- مهمة جديدة أسندوها إليك. نجاحك السابق يبرر ذلك.

طفت على صرامته ابتسامة خفيفة وسألته بلهفة:

- ما هي؟

قال بأسلوبه المقتضب:

- سلاح.

- لا، لن أقتل.

سالت ابتسامته وغلف صرامته الامتعاض وقال بمثل اندفاعي:

- من قال ذلك؟ القتل للرجال.

فقلت وقد عاودني الارتياح:

- فلنكن متفقين على ذلك.

أخذ نفسا عميقا وسكت حتى هدأ غضبه ثم قال متوددا، مستدركا:

- مجرد سلاح تحملينه إلى الخميــات.

-أما هذا فنعم.

قال إن كلمة السر هذه المرة هي «ضربوا الروم بالحجارة». ثم شحنني بالتعليمات والمعلومات وترك ذهني نهبا للفِكَر، كأنني أعيش ليلة الحريق من جديد. بت لا أرى إلا الكلب، يدور حول نفسه وبنحاس معلقاً في السلم والسلة تنفجر وذكرت القفة فضحكت وسأل:

- ماذا يضحكك؟

قلت وضحكي يعلو في الظلام:

- ذكرت يوم طارت قلنسوتي ووجدت في كاحلي قفة.

فقال من دون أن يضحك:

- غدا أنظري أين تضعين قدميك.

فلذت بالصمت وقضيت الليل أدعو لمهمة الغد بالنجاح.

في الصباح وجدت رأسي حامية والأرض تميد تحتي. أحكمت النطاق حولي ودسست المسدسات في طوقي، ملفوفة في خرقة فتذكرت: «شقت نطاقها نصفين فربطت بأحدهما السفرة وبالآخر السقاء...» ويتوقف ويطيل التقاط النفس فأُنعِمُ النظر في أنفه وأفكر في تينة كبيرة ثم يصلي على النبي ويثني على صحابته فينزلق نظري إلى لحيته وهي تهتز على حكيه ليتسرب النوم منها إليَّ لافًّا بغلالة خفيفة صورة أسماء كما صنعها خيالي على حكي جدي. هزتني المقارنة وفكرت أن النضال هو النضال ولو بعد عشرات القرون وأن المرأة حاضرة فيه كذلك، دائما.

قطعت بي الحافلة مسافة الطريق إلى الخميسات وأنا أشعر بالغثيان، كأنني قضيت ليلتي في حفلة عرس. أغفو وأصحو وأنسى فأتصور أن الفقيه بجانبي ثم ألعن الشيطان. ووصلنا فنزلت وسرت مدة سمعت بعدها صخبا خلفي، فيه كلام بالفرنسية فتوقفت وتلفتُّ فرأيت شاحنة عسكرية يتواثب منها الجنود. هل جاؤوا في أثري؟ تفقدت المسدسات ولكنهم تعدوني ودخلوا مقهى فرنسيا اكتظ وضجّ بهم. تنفست الصعداء وواصلت السير. سألت عن العنوان مرتين واقتربت منه فوجدت عنده جمهرة غفيرة وسيارات شرطة فتوقفت وتفقدت المسدسات من جديد ثم سألت امرأة موشومة قالت إنه عميل

أرداه الفدائيون قتيلا فهم يفتشون المنطقة. لماذا تقتلونه هنا والآن؟

نكصت على عقبي وسرت مدة وجدت نفـــي بعدها في اتجاه مكان الحادث. ولمحت قاعة سينما فقصدتها. اقتنيت تذكرة ثم جلـــت في الظلام وتلفتُّ على ضوء الشاشة حولي. إلى اليمين غلام مندمج في الفيلم وإلى اليسار مقعد شاغر. ماذا لو فتشوا قاعة السينما؟ وضعت المسدسات على الأرض ودفعتها بعقب قدمي تحت المقعد وخرجت.

تفرقت الجمهرة وبان القتيل مـــجى ، يتوسد الطَّوار. جلـــت أراقب المكان من بعيد حتى جاءت سيارة إسعاف حملت الجثة وتبعتها الشرطة فتقدمت. ألفيت العنوان متجر حصر محلية، بداخله رجل على رأسه عمامة ملفوفة لفة أمازيغية. اقتربت منه وقلت:

- ضربوا الروم بالحجارة.

فقال:

- أين المسدسات؟

- في مكان مضمون.

خرج وتبعته. توجه إلى خلاء خلف البيوت وقال:

- سأنتظرك هنا.

رجعت إلى قاعة السينما واستدلَّيتُ على مقعدي من جديد

فسحبت اللفة بقدمي وانحنيت عليها. وانتهى الفيلم فأشعلت الأضواء وتكدسنا على الأبواب.

خرجت وقصدت الرجل. رآني من بعيد وخف إليَّ فسلمته اللفة ورجعت إلى المحطة.

– 4 –

سوق السلع القديمة مكتظ كعادته. هو كذلك منذ كان. كانت أمي من رواده. تبيع أو تشتري. كان ذوقها رفيعا. اشتريت الصوف وأدوات الصنعة. صرفت ما معي ولكنني شعرت كأن قيدا تكسَّر فألقيت برأسي إلى الخلف حتى رأيت السماء وتنفست بعمق وشكرت الله بصوت مرتفع ثم رجعت إلى البيت بفرحة خفت ألا تدوم وجلست أتفحص مشترياتي. وشرعت في العمل فسرى إلي منه انتشاء عجيب. عملت بلا هوادة كأن بيني وبين العمل ثأرا.

أين ما كان من كَرْب ويأس؟ لاشيء يدوم. لا مشاعر ولا أفعال. كأنني فتحت للغريب في حلم. مع ذلك أذكر أنني أوجست وأنه قال وفاقم توجسي:

– لا تجزعي. أنا رشيد.

زميل زوجي الجزائري في العمل.

- ... لقد أخذوه هذا الصباح.

حسبتها أهول لحظة في حياتي إلى أن جلس وقال ولم يطرف له جفن: «ستصلك ورقتك وما يخوله القانون». الوغد! لو كنت أدري لكفيت نفسي عناء الموقف ولكنني لم أكن أدري. اكتظت علي الشقة بالزوار وأنا معصوبة الرأس أتمايل حزنا ولوعة. اتهموه بالتحريض على الإضراب ورأيته فلم أعرفه. ضمرت وجنته كأنما تحت ضربة مطرقة. كلما نظرت إليه ألحّت علي صورة المطرقة فامتزج التقزز في نفسي بالألم. ربي هل ننسى ما تصنعه بنا فرنسا؟

ما أسرع ما نسينا! أثخنتنا جراحا حتى تصورت أن بيننا وبينها بحارا من دم لن ترمى فوقها الجسور أبدا. لم أتصور أن تربطنا بها العلاقات والمعاهدات وأفواج المهاجرين. لم أتصور. ولكن هناك من قال: «نحن أيضا آذيناهم وأن الأمم العظيمة لا تقبع في الماضي».

صدر الحكم ونقلوه إلى العادر. سمعت به ولكن أين يقع وكيف الوصول إليه؟ سألت ورحلت ذات غداة مع رقية بمجرد رفع منع التجول. دفع موظف شركة النقل ثمن تذكرتينا من جيبه وقال عندما حاولنا الإعتراض إن سجيننا يدفع من أيامه ثم لحق بنا في السيارة العمومية وأوصى السائق أن ينزلنا في العادر فالتفت الركاب وقيل:

- زوجات المعتقلين.

تحركت السيارة ثم نزلت جنوبا على طول الساحل . عن يميننا المحيط وإلى اليسار مراع وحقول تكاد لا تحد. مخزن المغرب من الحبوب. تبارك الله! وملت على رقية وقلت:

- الغرب على العكس برتقال. هناك بقول أيضا ولكن البرتقال هو الغالب والتربة هناك سوداء.

ودخلنا مولاي بوشعيب، بلدة صغيرة تسمت باسم وليها الصالح، لها أسوار تاريخية عند أقدامها يصب أم الربيع في البحر. توقفنا في الساحة العمومية وأنزل متاع بعض الركاب واشترى آخرون طعاما عادوا به إلى السيارة وصعد حمالون بالبضائع إلى سطح السيارة ثم انطلقنا فتوالت الحقول من جديد حتى توقفت السيارة وقال السائق:

- الذين يريدون المعتقل!

نزلنا ونزل نساء ورجال. في لحظة كان مساعد السائق في السطح يمد القفف إلى رجل في السلم فيمدها بدوره إلى بقية الرجال ثم واصلت السيارة طريقها. وأجلت النظر. لا شيء سوى الخلاء.

حمل الرجال ما قدروا عليه وسلكوا طريقا فرعيا وتبعتهم النساء بأحمال أخف. الطريق صاعد بين أشجار أوكاليبتوس مورقة، مطلية جذوعها بالجير والموكب يتوقف فتجلس النساء

على الأمتعة ويقرفص الرجال وتتساقط علينا بقع من ضوء الشمس من خلال الأوراق وأسأل في كل مرة:

- ما يزال المعتقل بعيدا؟

فيقولون:

- سبعة كيلومترات من المحطة.

ثم كف الطريق عن الصعود وبان المعتقل في نهاية فسحة وعلى بابه حراس بادرونا بقولهم:

- انتظروا هناك! لم يعد السجناء بعد من الحقول.

جلسنا في ظل الأشجار. وصلينا الظهر ثم العصر ثم لاح طابور السجناء فناديناهم وهرعنا إليهم لكن الحراس حالوا بيننا وبينهم. وجيء بكشف كتبوا فيه الأسماء ثم أدخلونا ساحة وجدنا المعتقلين فيها مقرفصين خلف خط أبيض فقصدناهم وقرفصنا بدورنا خلف خط مواز. وسأل زوجي عن الفقيه وعن الأخبار لكن حارسا وقف على رؤوسنا فتكلمنا في العموميات. وناولت الحارس محتويات القفة فتناولها زوجي منه. وابتعد الحارس فسألته:

- ماذا تريد أن أحضر لك في المرة القادمة؟

قال:

- لا تأتي إلا بعد شهر. هناك مشكل الميت.

قالت رقية:

- صحيح. لم نفكر في ذلك.

قال:

- ستجدان وولتر خلف المعتقل.

- وول...؟

- وولتر. حارس ألماني زوجته مغربية من شتوكة.

وتساءلت في عجب:

- نصراني ويفتح لنا بيته؟

قال:

- ليسوا سواء وهذا بالذات يحب المغاربة.

وانطلق الصفير وجاء الحارس يصرفه فمضى وهو يلتفت ويقول:

- سلموا لي على الدار البيضاء.

خرجنا وامرأة تجفف دمعها بطرف نقابها الأسود. وخلف بناية المعتقل وجدنا وولتر. رجل معتدل القوام، ممتلئ ، شديد الشقرة. رآنا وسأل بالعربية:

- أسرة الصي محمد؟

قلنا:

- نعم.

ولم نألف مُوَادَّة رجل من الغرب فقال:

- تعاليا معي!

مشى ومشينا على بعد خطوات وراءه فقادنا عبر حقول القمح. كل شيء ساكن في ضوء الغروب، يوضح سكونه صوت الريح في السنابل اليابسة. ووصلنا كوخين يسرح عندهما الدجاج فنادى:

- يا فاطنة!

وخرجت امرأة سمراء، طويلة، عريضة المنكبين تسبقها طفلتان ضفائرهما سوداء معقودة حول رأسيهما ومن تحت ثوبيهما تبدو ثنية السراويل البلدية. قال:

- ضيوف.

وقالت:

- مرحبا بهم.

وسلمت علينا وكلب مربوط ينبح. نهرته بلهجة دُكَّالِية وقادتنا إلى الكوخ فتقوسنا ونحن ندخله. أشعلت مصباحا في عمود فتجلى حصير وصناديق مزوقة. وكشطنا جلبابينا والمرأة تفرش على الحصير لحافا ثم غابت. وجلسنا على اللحاف فبان ظهر المعتقل في غبش المساء، بعيدا بقضبان نوافذه الحديدية السوداء.

عادت فاطنة مع فتاة تحمل ديكا مذبوحا أعدته الفتاة بينما أوقدت فاطنة التنور. غمرتنا الألفة. ودخل الرجل يمسك بالطفلتين فجلس متربعا وأجلسهما على ركبتيه وأنا أسترق إليه النظر وأجد له عندي شعورا غريبا، مودة تخالطها رواسب أحقاب من النفور وسوء الظن. منذ صغري ثبت عندي، من كثرة ما سمعت ورأيت، أن النصارى جنس آخر حتى أنني كنت أسائل نفسي عما تراهم يأكلون. ورفع رأسه فحولت نظري ورأيت عقب دجاجة تنقب الأرض في باب الكوخ وفاطنة ينعكس عليها ضوء التنور.

فُتح بابي ودخلت الجارة تقول:

- أدركت أنك تشتغلين. ليس السهر إلى هذه الساعة من عادتك.

«أية ساعة»؟ جاءت تتجس.

- ... جئت أخبرك أننا نعطل عداد الكهرباء في التاسعة.

أنظر إليهن كيف يلفقن الأعذار!

أكاد أنتهي على كل حال من تمشيط الصوف. ها قد عاد ذهني إلى وثباته. لم يأت الصوف بالتغيير الذي توخيته. أقول إنني تغيرت يوم أمسك بزمام هذا الذهن فلا يفلت مني. والآن يجب أن أنام. وذهب الضوء في الدار وعادت المرأة على ضوء شمعة.

أشعر بإعياء شامل، كأنني عائدة من إحدى سفراتي

المنتظمة إلى المعتقل. على هذه الحال كنت أعود، لذلك شعرت بالارتياح عندما جاءتني امرأة وقالت:

- زوجك نقل إلى غبيلة[1].

كنت عائدة من مظاهرة استقبلت بها الدار البيضاء كرانفال. هكذا سموه وقالوا إنه المقيم العام الجديد وأنه يطالب بعودة بن يوسف وعزل بن عرفة. رجل كأنه طويل، تبدو منه في سيارته البيضاء المكشوفة سترة بيضاء، وشعر فاحم مدهون ومردود إلى قفاه. يلوِّح والناس تحدق به كأنها تزفّه.

شكرت المرأة فنزلت الدَّرَج وهي تتلمس طريقها. وفي الصباح ذهبت مع رقية إلى المعتقل الجديد. شقوا الخبز وكسروا قالب السكر وألصقوا بالقفة اسم زوجي ووضعوها على لوح كبير حمله اثنان. وعبرنا عتبة المعتقل فكتبوا أسماءنا على لوح أسود معلّق في الحائط ورقموها ثم كتبوا مجموع الأرقام في أسفل اللوح وقادونا إلى قاعة يفصلها سياجان بينهما حراس.

دخلنا والأصوات ترتفع وتختلط. وبحثت حتى وجدته. سألت عن حاله فضاع السؤال. أمطت النقاب وتشبثت بالسياج فسمعته يقول:

---

(1) اسم السجن المركزي في الدار البيضاء.

- توشك أن تفرج.

لو كان في عقر البحر لوصلته أخبار السياسة.

- ... أليس كذلك؟

- كذلك!

طلب مني إحضار جلباب ونقاب وسأل عن الجديد فتكلمت عن تحركات وادزم والريف ووقوف اليسار الفرنسي في صفنا. وسأل:

- وماذا أيضا؟

قلت:

- بن يوسف في الطريق إلى فرنسا.

فاض غبطة وضرب السياج بكفه فدق حارس عليه بمفتاح كبير قائلا:

- الكلام في السياسة ممنوع.

عدت في اليوم التالي ووقفت في الطابور. وجاءت امرأة ووضعت قفتها عند باب السجن فأمرها الحارس بالابتعاد ولم يمهلها. ركل قفتها فانكبت الأواني وتدحرج البرتقال إلى طريق السيارات فجمعت قفتها وذهبت وهي تدعو على فرنسا. ودعانا الحارس فتكدسنا عند الباب وبدأ يعدنا. قَلَّ عدد الحراس لأول مرة كأنهم انقرضوا. لم يكن هناك سوى ذلك الحارس.

كتب أسماءنا وعددنا على اللوح ودخل المكتب فرأيت رجلا يمسح المجموع ويعيد كتابته بحيث زاد عليه رقما واحدا كما فهمت فيما بعد.

في القاعة فتحت منافذ السياجين واختلط المعتقلون بالزوار لأول مرة علامة على الإنفراج. زوجي يبتسم. سأل عن الأخبار أول ما تكلم فقلت:

- المفاوضات انتهت وبن يوسف يصل إلى الرباط في الثامن عشر من هذا الشهر[1].

ازداد ابتساما وقال:

- أين الجلباب والنقاب؟

فككت أطراف ثوبي تحت جلبابي وسقطا فانحنى يجمعهما ويقول:

- معتقل نخشى عليه. قد يغتالونه.

- تهربونه؟

لم يرد. شق الجمهرة وغاب ثم عاد وبين يديه بذلة سجن وضعها في أطراف ثوبي فشمرته وأسدل هو عليه الجلباب بسرعة. وعندما رحلت إلى الرباط حملت تلك البدلة معي ثم حملتها يوم الطلاق مرة أخرى معي إلى البلدة.

---

(1) 18 نوفمبر 1956 يوم استقلال المغرب.

وجدت في باب الشقة رقية وامرأة أخرى قالت إنها صفية التي كانت تخفي الفقيه في بيتها. عرفتها ونحن على عتبة الاستقلال. لم تشترك معنا سوى في التجمعات وجمع التبرعات ومحاربة الأمية وما إلى ذلك. سلمت عليهما ودخلنا. جلسنا بجلابيبنا وقالت رقية:

- لقد تقرر أن تنظم تجمعات نسوية في الأحياء.

وقالت صفية:

- وسنتولى نحن الثلاث تنظيم تجمعات بوشنتوف.

اتفقنا أن يكون الاجتماع بعد الغد في بيت رقية وأن تخبر كل منا ما تستطيع من نساء يخبرن غيرهن وهكذا.

نجحت خطتنا وتدفقت علينا النساء في الموعد حتى اكْتَضَّ بهن صحن الدار فخطبنا فيهن على التوالي. تكلمنا عن الظرف الدقيق الذي تجتازه البلاد وعن المغرب الجديد وكوننا كما قال السلطان فيما بعد، نبدأ الجهاد الحقيقي أو الجهاد الأكبر، وعن قرار الحركة الوطنية بدأ حملتي التبرعات ومحاربة الأمية. ووضعت علينا أسئلة كثيرة وتمادى بنا النقاش ونحن لا ندري. كُنَّ أكثر وعيا منا.

وردت رقية على سؤال حول وجوه استعمال التبرعات. وهي ترد نظرتْ إلى باب الدار وتوقفت عن الكلام. ونظرنا إليه فإذا الفقيه منتصب يجول بعينيه في جمعنا ويبتسم. سكتنا

للحظات تحت أثر المفاجأة ثم زغردت امرأة قلدتها ثانية وثالثة حتى اختنقت الدار بالزغاريد. بعد ذلك أحطن به وقبلن يده في تدافع كأنه عائد من الحج.

خرجت النساء تباعا حتى لم يبق سوانا فجلسنا حوله. وسأل عن نتيجة اجتماعنا فقلت:

- ننخرط في مراكز محاربة الأمية. هذا أول شيء.

وقالت صفية:

- وننظم حفلنا يوم الثامن عشر من نوفمبر.

وقلت:

- ونجمع التبرعات.

فعادت رقية تقول بزهو:

- أنا صاحبة المحفظة.

لكن الفقيه تجهم وقال قولة كرر زوجي معناها بعد أيام، ألقت على صفاء الحبور غيوما من الشك. وهذا ما قاله بالضبط:

- أقبل بشرط واحد. ألا تدخل المحفظة بيتي.

هل مضى عهد الإخلاص والثقة؟ هل تراه يمضي؟ بدأ التمهيد والإيعاز ثم جاءت الأفعال مباشرة. صحيح أن المبادئ أكثر شيء عرضة للتلف. ما أصدق شيخ الضريح! وردت رقية على شرط الفقيه بنفس الحزم:

- وأنا أقبل شرطك وإن كنا على كل حال، نسلم إيصالات إلا على الخمسين فرنكا[1].

رفض أيضا أن تدخل الودائع بيته وتذرعت أنا بصغر شقتي فتطوعت صفية لذلك وحلت عقدة كانت ستفسد علينا الأمر كله.

عدنا بحصيلة اليوم الأول في أعقاب النهار وجلسنا ورقية تتأبط محفظتها حتى وصل ممثل عن الإخوان ففتحت المحفظة وأفرغتها في منديل حالما جلس. وأحصينا النقود فتسلمها الرجل ثم فرزنا البضائع بمحضره. أواني من نحاس وفضة، مجوهرات وملابس فاخرة أحيانا... وعندما انتهينا من ذلك قالت رقية:

- حان موعد المركز.

فتناولنا الكراريس والأقلام وخرجنا. وفي باب الزقاق قلت لهما:

- الأخيرة تأتي مع العشاء.

فقالت رقية:

- أمثالك ألغاز.

وقلت موضحة:

---

(1) كان الفرنك بقيمة السنتيم اليوم.

- كان لجدتي جارة لها ابن مشاغب جدا، يقضي يومه في الشارع ولا يدخل إلا بعد أذان العشاء، فكانت تأتيها الشكاوى تباعا طوال النهار. ومع آخر شكوى يرتفع أذان العشاء ويدخل الولد فتقول: «الأخيرة تأتي مع العشاء!» فذهب قولها مثلا في بلدنا للدلالة على كثرة المشاغل والمشاكل.

فضحكت رقية وقالت:

- ونحن مع العشاء نكون قد حاربنا الأمية.

وقالت صفية:

- كثرة الأحداث هذه تخيفني، كأننا نختزل عمرنا في هذه الأيام.

وقلت:

- إننا نعيش حدث الاستقلال. هل تدرين معنى أن نعيش حدث الاستقلال؟ معناه أننا نرى التاريخ وهو يصنع أمام أعيننا.

وعادت صفية تقول:

- مع ذلك نفسي يانعة.

وقلنا أنا ورقية في نفس واحد:

- وأنا أيضا.

وضحكنا ضحكة زادتنا انتعاشاً.

في تلك الأيام جاءتنا أخبار إطلاق سراح المعتقلين. وجدنا في باب غبيلة أمة ترفل في الأبيض. يتكلمون ببهجة ويضحكون بلا سبب ويسلمون للقادر على تغيير الأحوال. وزاد التسليم العام بالقدرة الإلاهية عندما رأينا باب السجن يفتح والمعتقلون يخرجون منه واحدا تلو الآخر. سمات عرس حقيقي، بل أكثر.

تلت ذلك احتفالات الثامن عشر من نوفمبر. ماذا أقول؟ وكيف أصف؟ تحولت الدار البيضاء إلى حفل واحد تتصل فيه المنصات والأبواق وتتشابك الأغاني والمسرحيات والخطب وعبير الشاي بالنعناع الذي يعد على الطرقات. من حفلنا في سطح عمارتنا بتنا نطل عليها وهي تسبح في الأضواء وتهدر كأنها أصيبت بالهذيان.

وما التقطنا أنفاسنا حتى قيل:

- غدا نرحل إلى الرباط.

وفي الغد ركبنا سيارة عمومية تربعت رقية بهيكلها الضخم على غطاء محركها وفي يدها علم ولهجت بالهتاف طوال الطريق. ذكرتها بذلك فيما بعد فقالت باسمة:

- كنا حمقى.

تحركنا نحو الرباط في كتلة فيها كل ما يسير على عجلات بسرعة لا يكاد يسجلها العداد. استغرقت الرحلة ساعات

وساعات يعلم الله عددها. من أين كنا نستمد الطاقة؟ والحماسة؟ كيف قضينا الرحلة وكيف احتوتنا حظيرة القصر الملكي؟ كان همي أن نصل بسرعة. حفزني تَوق شديد. أنا أعرف السلطان. مع أنني لم أره إلا مرة واحدة ما زلت أذكر وجهه. رأيته عندما عاد من فرنسا عن طريق البحر ونزل في الدار البيضاء وجاء فرسان القبائل لاستقباله على صهوات خيولهم المزينة وخرجت في الحشود إلى طريق موكبه. مر ولوَّح ورأيت تقاطيع وجهه في لمحة واختزنتها.

أذكر أن التعاطف تحرك فيَّ وتصاعد، كأنني أرى وجها أليفا بعد غيبة. وحين عزلوه شملني الحزن الجماعي الدفين. ووضعت الدار البيضاء في كف عفريت وبدأنا نراه في القمر وأصبح وهو في منفاه يمسك بمصير فرنسا في المغرب لا العكس.

ظهر السلطان في شرفة القصر محفوفا بولديه فارتفع في المشور هدير رهيب وكان هناك من يهتف ومن يزغرد ومن يضحك ومن يبكي. كم كان له من نفوذ على القلوب! إبعاده أضفى عليه شيئا قدسيا من أجله دخلت الناس في المقاومة، كأنه أصبح فكرة أو مبدأ. لو لم يعزلوه لطال أجلهم بيننا. أنا واثقة من ذلك. تكلم ولي العهد نيابة عن أبيه والناس لا تكف عن الهدير. سمعت بما كان يوم رجوعه، بجانبه ما رأيته في المشور ذلك اليوم لا يكاد يذكر.

كم مرة أصغينا لخطاب العرش؟ ذلك الخطاب! حفظته عن ظهر قلب. أنا إلى اليوم أحفظه وكلما استرجعته رجعت المشاعر التي رافقته ومعها نبرات صوت السلطان وطريقته في مد الحروف. كنت تسمع الصغار في الشارع يرددونه: «في هذا اليوم السعيد الذي مَنّ الله فيه علينا بنعمتين، نعمة العودة إلى أعز الأوطان بعد طول غيبة وشدة حنين ونعمة الاجتماع بشعب طالما اشتقنا إليه واشتاق إلينا ووفينا له ووفى لنا بغير حساب. امتحنتنا وإياه الشدائد فلم تنل من عزيمتنا بل خرجنا منها ونحن أقوى إيمانا بحسن مصيرنا وأكثر وعيا بحقوقنا وواجباتنا».

وغادر السلطان وولداه الشرفة بعدما لوح فعم المشور صراخ وتدافع. لم أر شيئا مما حدث ولكنني سمعت أن الجماهير تعرفت على عميل[1] رابها وجوده فقتلته كما يجدر به. ما الذي جاء به إلى ذلك المكان وفي ذلك الوقت إن لم يكن حتفه؟ وعاد حادث مقتل عميل آخر كما رأيته في أوانه بالتفصيل ومعه الشعور المأساوي الذي يصحب الموت. عاد ينتفض بالحياة، كأنه يجري أمامي للتو. رأيت الكهل، عمامته وعباءته وهو ملتفت إلى قاتله الذي تحضرني منه قامة طويلة، نحيلة وأنف أغلب الظن أنه أقنى وطربوش تونسي. يرتدي

(1) هو البغدادي. كان عميد الشرطة في مدينة فاس إبان الاستعمار وكان معروفا بوحشية التعذيب الذي كان يمارسه على أعضاء الحركة الوطنية

جلبابا أبيض ويصوب نحو الكهل عن قرب مسدسا يبرز في ذاكرتي الآن سواده.

استغرقت العملية ثوان تشابكت فيها نظرات الرجلين حتى آخر لحظة. كان في نظرة صاحب المسدس عزيمة وفي نظرة الآخر انكسار الطريدة. تقلص وجهه وذهبت طلقة فصدر عنه صوت منكر، غير آدمي ثم ذهبت طلقة أخرى. لم أره يسقط. لا أذكر ذلك. وابتعد صاحب المسدس على مهل وأنا أتابعه من الخلف، بين جدارين أبيضين، متقاربين في زقاق مترب، إلى أن توارى.

مضت أيام قليلة على رحلتنا إلى الرباط وأسندوا إليه منصبه المشؤوم فوجبت تصفية الودائع التي عند صفية. لن أنسى. عكرت الصفو ولوثت النضال وأطفأت التفاؤل والثقة.

قضينا سحابة يومنا بين أكداس الأواني والثياب، فينا، عدانا نحن الثلاث، نائب عن الإخوان وتجار البضائع المستعملة. وانتهت المزايدة وتسلم الرجل النقود وخرجنا. وفي الشارع لمعت في ذهني صورة كوميض البرق. أخذتني على حين غرة فكأنني رأيت ثعبانا. صورة ثوب نسائي تقليدي فاخر كنا قد عدنا به أنا ورقية من إحدى جولاتنا. لم يكن بين البضائع. ووصلت الشقة وقال زوجي:

- كأنك عائدة من جنازة.

قلت له على الفور إن صفية مدت يدها إلى الودائع فقال قولته التي تقترب مما سبق وقاله الفقيه:

- وهل بدأوا من الآن؟

ذلك اليوم ماتت صفية في نظري. صفية التي عرفتها، وما هذه إلا واحدة ممن جاءت بهم رياح التغيير. ما أشد غموض الناس! وأشد تلونهم! بعد صفية زوجي، اقتلع من نفسي الثقة وأرسى مكانها الشك إلى الأبد.

حدثت شيخ الضريح عن صفية. قلت له إنني رأيتها تخرج من جلدها كما تخرج السلحفاة من قشرتها فقال قولة ما زلت أقلبها. قال:

- إن السلحفاة إذا خرجت من قشرتها لم تعد سلحفاة ولم تصبح شيئا.

دقت ساعة في حجرة ما وعددت دقاتها. كنت مع الأرق سأسير حثيثا نحو الجنون لولا الصلاة. أصلي، وعدا أنني أجد في الصلاة الأنس بالله، بدأت أجد فيها دواء للأرق. عندما يُعَنِّتُني النوم مثل هذه الليلة، أصلي فيأتي من حيث لا أشعر به. يا له من اكتشاف عجيب!

- 5 -

قبضت ثمن غزلي. أخرجت رأس المال ولم تبق سوى فرنكات فهبطت المعنوية وعاد الإحباط.

في الأزقة شبان أكتافهم العريضة مسندة إلى الحيطان المتداعية. ينتظرون ماذا؟ وفي الضريح ما زال الشيخ يخطط للنساء والرجال. بلدة تموت وتقاوم بالأمل والخوارق. سلمت عليه وقال لي:

- امسحي تلك التقطيبة.

مسحت آليا وأنا أقول:

- لا فائدة. ستعود.

وضع ما بيده وتأهب للإنصات فتربعت وقلت:

- بعت الغزل. ثمنه لا يشتري لي حتى كفنا.

- ألم يشغلك عن الألم؟

- الألم أعايشه والماضي لا يصده المغزل. لم أجد راحتي هنا.

- ماذا تقصدين؟

- أرحل.

- عبثا تحاولين الهرب من نفسك بتغيير المكان.

- عزمت وتوكلت. لا تحاول أن تثنيني. حياتي ليست في هذه البلدة.

- إنها بلدك.

- بلد لا يضمن لي لقمة العيش ليس ببلدي.

- وإلى أين؟

- الدار البيضاء.

- وماذا تصنعين فيها؟ لستِ متعلمة.

وجدت عندي ميلا للسخرية، من نفسي قبل كل شيء فقلت له:

- معي دبلوم محاربة الأمية. ألا تعرف ذلك؟

لم يرد فقلت أستفزه ولم أعنِ ما قلته:

- لم يترك لي الوقت لأعمل حسابي كباقي خلق الله.

لازم صمته واستدرجته:

- التغيير جاء من أجل حفنة من الناس.

فقال بهدوئه المعتاد:

- لا تدعي الحقد يأكل قلبك.

لا يعوزه الرد. استفزني فهو المسؤول. قلت بحدة:

- ما أسهل إسداء النصح! تقول ذلك لأنك لست مكاني. أنت في ضريحك، تخطط ولا تدري بشيء. لقد بدأوا يلبسون الفرو والحرارة فوق الثلاثين ويدخنون سيجار هافانا ويأكلون بالشوكة.

فتلا:

- ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

لا أحد مثله يعرف كيف يروِّض اندفاعي. صحيح لا يتبدل إلا من لا يعرف الإيمان قلبه. أصبح الآن بحاجة إلى من تقدم السجائر لضيوفه وتمهد له الطريق بكل الوسائل.

وجدني أجلس مع الخدم في الشمس فاربدَّت عيناه وشعَّت منهما تلك النظرة التي تسقط في روعي أنه لو كان بيده مسدس لأطلق علي النار. ضاع الأمر من يدي ولحقت به إلى الطابق العلوي ثم نزلت. جلست على حرف الأريكة كأن البيت ليس بيتي حتى مرَّ إلى غرفة الطعام فتبعته. جلسنا والمائدة

تفصلنا كأنني جئت أطلب العمل عنده. بَعُدَ ما بيننا وأقيمت الحواجز. بدا وجهها غريبا، لا أعرفه. عاودت النظر إليه وزاد بعدا. أكل بالشوكة وأكلت بيدي. وتوقف صوت شوكته ورفعت رأسي فوجدت تلك النظرة. هببت منتفضة وسقط الكرسي مُحْدثاً جلبة وقلت:

- لا يعجبك أن آكل بيدي؟ وبماذا كنا نأكل في بوشنتوف؟ هل هذا هو الاستقلال؟ ولا يعجبك أن أجلس مع الخدم؟ باسمهم حاربنا الاستعمار وأنتم الآن تتصرفون مثله.

وتركت المائدة إلى الطابق العلوي فسمعت صرير عجلات سيارته وهي تنطلق. تفاقم الوضع ولم يعد بيدي تداركه. فهمت أنه لا يتقبّل هذا الوضع، أنه تلزمه امرأة جديدة بكل معنى الكلمة وأنه يمهد لذلك. وبقي الاستنتاج شبهة حتى لم يأتني السائق إلى الحمام العمومي ثم جاء يعتذر بأنه أخذ سكرتيرة السي محمد إلى الفندق فسألت وخفت أن أكون قد فهمت:

- الفندق؟

قال:

- والآلة الكاتبة. إنهما يشتغلان هناك هذه الأيام.

غبي أو ماكر. قلت له:

- إذهب أنت وماذا بيدك؟ لقد بدأ عصر السكرتيرات.

نسجت كلاما أدمي به قلبه حين يعود ولكنه لم يعد تلك الليلة. وحين سمعت سيارته في الصباح توثبت. صعد ينط وتبعته وأنا أهز أذيال ثوبي وأسأله:

- أين كنت؟

- في العمل.

- عمل غرف الفنادق مع السكرتيرات؟

فوجئ ولم يدر كيف عرفت وقلت وغضبي يزداد:

- هي فنادق أو مواخير؟ وماذا تصنعون بالفاتورات؟ ترسلونها إلى الشؤون المالية؟

كنا قد وصلنا إلى الغرفة فاستدار وصفعني. ووضعت يدي على مكان الصفعة وباليد الأخرى أشرت إليه وأنا أصرخ كأنني أخاطب جمهورا وهميا:

- هؤلاء من ننتظر الإصلاح من ورائهم. أنتم أشد خطرا من الاستعمار.

في تلك الأيام زارتنا رقية والفقيه. وفي اليوم التالي لوصولهما استيقظت منهوكة وذكرتهما. ذكرت أيضا أنه بات خارج البيت. لبثت برهة ثم جررت نفسي إلى الحمام وبحركات آلية سحبت منديل رأسي أمام المرآة من دون أن أفك عقدته ودسست تحته ما تناثر من شعري. وعكست لي المرآة وجها لا أعرفه عليه آثار المأساة التي تتلاطم بداخلي.

عيناي زادهما غورا بروز الوجنتين ودقة الملامح أصبحت مؤشر ضعف وعلة. وجلست للفطور فقالت رقية:

- مبروك بيتكما.

فرددت بلا مبالاة:

- بيت الحكومة.

قالت:

- تخفين عني؟ لقد اشتراه السي محمد بأبخس الأثمان.

وأقسمت لها بالطعام الذي بيننا أنني لا علم لي بذلك ولا حتى بأن أملاك الدولة يشتريها الحكام بأي ثمن. في الحالة التي كنت قد وصلت إليها لم يهمني أن أكون آخر من يعلم. ومدت لي كأس شاي تناولته منها وأرجعته إلى مكانه فقالت بنبرة وشت بقلقها:

- كأنك لم تنامي.

قلت بكل الأسى الذي يعصف بي:

- عندي إحساس بأن خطرا يتربص بي.

فقالت باستخفاف مصطنع:

- أوهام.

- ألم تري؟ إنه لا ينام في البيت.

واصلت تمثيلها:

- وهل تجهلين مسؤولياته؟

- تحت يدي ما يثبت مخاوفي وفي الليلة الماضية رأيت حلما آخر.

تسرب إليها الخوف وبان على وجهها وفي صوتها وهي تقول:

- خير. خير وسلام إن شاء الله.

- خير في وجهك. يعطيه لنا ولكم الله. رأيتني في نهاية سلم أريد ارتقاءه إلى غرفة نومي. الأرض تحتي بعيدة والغرفة لا يصل إليها السلم وأنا معلقة بينهما ثم رأيت شابة تدخل غرفتي وتبتسم لي ابتسامة سامة وأنا في وضعي الميؤوس منه لا أملك لمنعها سبيلا.

- وبعد؟

- اهتز بي السلم كالفرس الجامح وتلاطم بين جدارين متقاربين.

- هل أوقعك؟

- استيقظت قبل أن يفعل.

أناخ علينا صمت رهيب وقالت مدارية:

- وساوس.

فقاطعتها بحركة يائسة:

- إننا نعطي أحلامنا التفسير الذي يلائم هوانا ونأبى أن نرى فيها معانيها الحقيقية. أنا أفهم الحلم يا رقية. إنه واضح.
تفاقمت عليها وطأة الخوف فقالت بعد تفكير:

- نزور عرافة بلا إبطاء. هي وحدها ستقول لنا الحقيقة.

هذا البيت كأنني دخلته في حلم. شعرت بذلك من أول وهلة. أذكر جيدا. وجدت عندي شيئا ينطبق على ما سبق أن مر بي وأنا أعبر فدادين الغرب مع الفقيه ورحال، انطباعا غريبا بأن كل شيء غير حقيقي. حدث ذلك عندما أخذني لزيارة البيت الجديد في الرباط. فتح بوابة كبيرة وبانت مرجة منثورة بشجيرات سرو مشذبة في أشكال هندسية وفي نهايتها صرح عظيم. سرنا في ممشى وتعثرتُ فنظرت إلى الأرض ورأيت الحشائش ترفع رأسها في ملتقى الحجارة. فتح باب البيت عن بهو مفروش، في وسطه سلم عريض تبرز بياض مرمره حمرة سجاد تمسكه وتزينه قضبان من نحاس أصفر.

قطع نَفَسي ما رأيت وأمطت النقاب ووقفت أنظر حولي فجرني وجال بي في عجالة ثم دفع بابا وقال:

- المطبخ.

- : گراج علال[1].

---

(1) محطة المسافرين الرئيسية في الدار البيضاء حينذاك. كان يضرب بكبرها المثل.

فتح خزاناته وتركها مشرعة وتوجه نحو باب آخر وأنا أتبعه وأعلق:

- خزائن سليمان!

عبرنا الباب ونزلنا دَرَجا يفضي إلى فسحة في نهايتها جدار يتوسطه باب أخضر، إلى يساره حجرات بعضها فوق بعض فتبادلنا النظر وقال موضحا:

- الگراج وحجرات الخدم.

وتوجه نحو الباب الأخضر وفتحه فبان بستان فيه أشجار برتقال وليمون وأحواض خس وجزر وتوت الأرض. في تلك اللحظة اعتراني ذلك الشعور الذي أوحى لي أنني أنا وهو وهذه الدار وخروج الاستعمار أشياء غير حقيقية. ورجعنا إلى الدار وقلت:

- يا رب، من أخرجهم من كل هذا؟

فأجاب:

- نحن! نحن الذين أخرجناهم.

وها هو يعد العدة ليفعل معي الشيء نفسه. وها أنا أتبع رقية وواحدة من الخدم في دروب الرباط القديمة.

أنا أسعى إلى العرافة بقدمي؟

أنا أصدق دجلا أودى بحياة أمي؟

مرض أبي، رحمه الله، عندما كنت أسكن البلدة فكنت أزوره بعد الظهر وحر أغسطس يخنق ديارنا فتبلعني الدروب الخالية ولا أسمع سوى حفيف ثوبي. كنت أسير وأنا أحس بالأسوار التي تآكلت حتى ظهرت حجارتها وظُلَل الدكاكين الخشبية المطلية باللون البني وتدفق الماء من الينابيع النحاسية في بلاطات الأحواض الخزفية العتيقة ورائحة الصيف ممزوجة برائحة ورق البلوط الذي ينضج عليه الخبز في أفران البلدة. منذ طفولتي شعرت بالتواصل مع هذه الأشياء. وأرى المجنون عند باب الجامع الأعظم فيتكدر صفوي وأعبر القنطرة وقلبي دام عليه. يقولون إن السحر سبب ما هو فيه. وأصل إلى البيت وتستقبلني برودته وهدوؤه وتدفق الماء في حوضه فأنسى المجنون ولا أفكر إلا في إعداد العدة لمن سيصلون لعيادة المريض. بعد ذلك يأتي زوجي ونخرج مع أذان المغرب وأنا لا أدري بما تنسجه أمي في الخفاء.

جاءت أبي بدجال أثقله بالأحجبة وضحك عليها فأقنعها أن له عزيمة يستطيع بها أن يضاعف المجوهرات إذا كانت من ذهب. كان يجوز عليها كل شيء، رحمة الله عليها. ذهبت إليه بما تملك من أساور وأقراط وبقلادتي ونطاقي اللذين أحفظهما عندها. صَرَّتْ كل شيء في رزمة وخرجت في ظلمة الليل والأزقة خالية والدكاكين مغلقة والنهر يصطخب في عمق مجراه. حكت ذلك بعدما حل بها المصاب وأقعدها.

رأت الرجل أمام الجامع فدنت منه ووضعت رزمتها على الأرض ودخلت الجامع من دون أن تلتفت متجهة صوب المحراب لتصلي فيه سبع ركعات متقنة كما أوصاها. وعندما خرجت لم تجد للرجل أثرا فأصابتها الصدمة بالشلل. من يومها أعلنتُ الحنق على السلطة التي تسمح بممارسة الدجل ولم أتصور أن يأتي يوم أمشي فيه بقدمي إلى واحدة من أهله.

دفعت الخادم بابا عتيقا ودخلت ونحن في أعقابها ثم اتجهت صوب غرفة معتمة تلتصق بها رائحة الجاوي وتمتلئ بالنساء. وأُفسح لنا مكان احتللناه قرب الباب. لا أحد ينتبه لأحد كأن على رؤوسهن الطير. المرأة تلتحف بالأخضر والأسود على طاقية مزررة بالودع. في الركن وراءها أقمشة خضراء وسوداء معلقة على حبل وبجانبها مائدة واطئة مؤطرة عليها قماش أخضر، تعج بعلب وقوارير فيها مساحيق وسوائل. وعلى الحيطان شموع ضخمة مزوَّقة. وعندما جاء دورنا صفت أوراقها بعناية ثم قالت:

- الضباب كثيف والغدر له رائحة. على أننا عرفنا كيف نكون رجالا عند الضرورة.

قلت:

- صدقت أيتها الشريفة.

- من رقية؟ خديجة؟ محمد؟ البتول؟...

هي تسأل وأنا أهز رأسي لمن عرفت ومن لم أعرف.

- الله يخليهم لك. الأبيض أبو قلم ومكشوفة الرأس...

- ما لهم؟

- مالت لهم.

- صال علي أيتها الشريفة، بالجاه والعافية.

- سيقى بدونهما.

- متى؟

- في ثلاثة أوقات.

- في حياتك أيتها الشريفة. أعمل صدقة للعصافير.

فقالت بصوت مجلجل كأنها تخاطب خصما:

- يريدون أن يلقوا بنا إلى الكلاب؟ لكن لا بأس. الفرج آت والعاقبة للصابرات.

أصابت موضع الجرح في نفسي فنزلت دموعي. واستدعت غيرنا فخرجنا ونحن نذكر بعضنا بما قالته ونحاول فك رموزه.

حسبت لسذاجتي أن العقدة ستحل وأن الفرج كما قالت العرافة آت ولكن في نفس الليلة قلت للخادمة:

- هل يمكن أن تأتيني بكأس ماء من فضلك؟

فنظر إليّ وقال بوجه متقزز.

- لم يبق إلا أن تقولي لوجه الله.

ماذا أصنع؟ لا أستطيع مخاطبتهم من فوق. لم أتعود على ذلك. وخرج يعميه الغضب ويقول:

- خير لك أن تعودي إلى الكوخ.

خيل إلى أنني أفرغت من دمي وصرخت بما أوتيت من قوة ليسمعني:

- تقصد كوخ أبيك؟

وفي ذلك الوقت من الليل خرج الفقيه ورقية. وقال وهو يسلم علي وكلامه السريع، المضغم عادة، يزيده الانفعال سرعة وإضغاما:

- لم يعد يحترم أحدا.

وقالت هي:

- لا مقام لنا هنا.

كانت المرة الأولى والأخيرة التي زاراني فيها بعد الاستقلال.

وأسأل لماذا ويقول ليس عنده سبب؟ بعد كل ذلك أسأل عن السبب؟ النكبات تبلد الأذهان مثلما تشحذ الشخصية، مثلما تصنع الإنسان صنعا جديدا. وخرجت بثيابي التي على ظهري وحملت معي بذلة السجن وتوجهت إلى محطة المسافرين.

«ورقتي وما يخوله القانون!» الكلب! الضباب يلفني والأرض تميد بي. في حلقي غصة وفي صدري هم عظيم ولكن رأسي ليس به شيء، كأنه تعطل عن العمل. وفي صدغي نبض يضايقني. لو أن هذا الضيق ينجلي! لو أن هذه الغصة تزول! لو أن الهدوء يعود! بعد ذلك جاء الاكتئاب واستقر.

مضيت أَلُفُّ في شوارع حي حسان كالنحلة. أحاول أن أتماسك بجهد جهيد لأعرف أين أنا وأين أسير ولكنني لا أميِّز موقعي ولا أذكر المكان الذي أقصده. ورأيت أسوار شالة فعاد إلى وعيي وعرفت أنني أسير في الاتجاه المعاكس. جلست على حائط قصير حتى لمحت سيارة أجرة حملتني إلى محطة المسافرين.

لا أعرف كم مضى عليّ من الوقت وأنا أتخبط في تلك الشوارع ولا كيف اقتنيت البطاقة واحتللت مكاني ولا متى انطلقنا. لم أنتبه إلا والسيارة تعبر جسر أبي رقراق وتخلف الرباط وصومعتها الأثرية إلى الوراء فشعرت كأنني أرد إلى فترة من فترات الماضي، كأنني أعيش الماضي، كأن شيئا لم يتغير. وما الذي تغير بالنسبة لي؟

في فاس ركبت سيارة أخرى من محطة أخرى. أمضيت عمري بين المحطات. وجدتني مهدودة كأنني على وشك أن أصاب بنزلة برد. وفي الطريق إلى البلد رأيت ما فعلته العاصفة فزاد على ما بي شعورا حادا بالتشاؤم.

سألت الشيخ:

- هل أكلفك بكراء حجرتي يا سيدي؟

- وبكل ما تريدين.

- ليس هناك سوى ذلك وسأعود لأودعك.

فدعا الله أن يفتح لي أبواب الرزق الحلال وناشدته أنا الصحة فلا شيء في مثل سني وظروفي أخطر من زوالها، وأن يزيح بنوره ما تراكم من ظلام.

أترك البلدة من جديد وليس هناك من يلوح هذه المرة. بداخلي إشكال فظيع ولكن الدار البيضاء لا تخيفني. همة كبيرة تحفزني وعندي رغبة قوية في أن أنتفض وأنطلق وأبدأ من جديد.

الأوراق الصهباء التي تكسب منطقتنا سحر الخريف ذهبت والأشجار عارية تحت سياط الريح والأمطار وغدا يغطيها الثلج فتصبح في مداه الأبيض أشكالا مجسدة مثل صنائع النحت الحديث.

ضرب المطر السيارة بعنف وتراكمت الغيوم في كآبة.

فاس هي فاس. النهر والبغال والحيطان الكالحة لولا طرق مزفتة وعمارات وأننا الآن نركب إلى الدار البيضاء في نفس اليوم.

صفا الجو بعد المطر. شعاع أصفر ينكب على الأرض

المبتلة وفي السماء زرقة خفيفة منثورة بسحب بيضاء كَجِزَز صوف نظيف.

الخميسات. محطة للتوقف من أجل الوقود والطعام والقهوة. لم تتغير. وها هو شارعها بمنظومة مقاهيه. رأيت قاعة السينما ومتجر مُحا وعَلاً وخفق قلبي. نزلت وتنشقت في نقاء الجو برودة أنعشتني.

الرباط. لاحت وأظلمت نفسي. توقفنا فيها مدة شعرت خلالها بالاختناق. إلى متى ترتبط هذه المدينة الجميلة عندي بالغمة التي لا تنقشع؟

ثلاث محطات. ثلاثة معالم. لماذا يمر طريقي منها من جديد؟

الدار البيضاء. لا شيء مثل الدار البيضاء. تفتح نفسي دائما. كأنها تبتسم، كأنها تحتضن المنكوبين مثلي. وتصاعدت في داخلي موجة كنهها أنني أريد الاستقرار في هذه المدينة.

نزلت من السيارة ومددت الخطى. ليس لي من متاع أنتظره. ليس لي سوى بذلة السجن التي أحملها في رزمة تحت إبطي.

فتحت رقية وأشرق وجهها لكن القلق تسرب إليه وبدد الإشراق. وعبرتُ الصحن إلى الغرفة ووضعتُ الرزمة وجلستُ وجلستْ أمامي وقلقها يزداد فقلت بسرعة لأضع لهذا القلق حدا :

- طلقني منذ ثلاثة أشهر وليس في البلد ما أعيش منه.

امتقعت وأنا أتكلم وبدأت تجفف دمعها فصبَّرتها قائلة إن ذلك لا يعني نهاية الدنيا ولكن سرعان ما وجدتني أجاريها في البكاء.

وجاء الفقيه. أنذره انتكاس رأسينا وبان ذلك في صوته وهو يرحب بي ولكنه ما لبث أن قال:

- أُعلمتِ أنني عُينت قائدا؟

فنعت إليه رقية الخبر وجاء دوره لينكس رأسه. وجدتُ عندي وازعا شيطانيا للنيل من التغيير لديهما هما المتفعان به فقلت له:

- كان بودي أن أهنئك لولا أن القيادة أعطيت لكل من هب ودب.

فقالت رقية لتردنا إلى صلب الموضوع:

- ستعود المياه إلى مجاريها.

وقلت لأقطع عليها خط الرجعة:

- يجب أن أجد عملا وخير البر عاجله.

- هذا لن يكون.

قالتها وصادق عليها كعادته فقلت:

- ليس عندي استعداد للجدل ولا أحد يعرف مصلحتي أكثر مني.

فقال:

- لا تتوتري.

قلت:

- أنا لا أتوتر.

عضت على شفتها ورأيتها. وسكتنا برهة عاد فيها إلى موضوع منصبه:

- أحسنتُ الاختيار أليس كذلك يا رقية؟ قالوا لي في الوزارة: «لماذا لا تريد القنيطرة؟» فقلت: «أفضل أزيلال لجوها الجبلي.» ولابد أنهم عرفوا السبب الحقيقي. القنيطرة؟ ماذا أصنع بالقنيطرة؟ في أزيلال على الأقل ينتفع الإنسان.

لم ترد عليه فعاد يلح:

- ستشبعين دجاجا وبيضا.

وسألت أنا:

- ومتى تنوون الرحيل؟

فقالت:

- يذهب الفقيه ثم ألحق به.

- لا تفعلي ذلك من أجلي.

بادرت وسبقته:

- كنا متفقين على ذلك قبل مجيئك.

وعدل هو عما كان يريد قوله ولكنه لم يلبث أن عاد يقول وهو يبتسم في زهو:

- أزيلال هذه معتبرة.

وأخرج علبة الكيف وسألتُه:

- وأين تقع؟

بعناية عبأ الفوهة الصغيرة التي تبدو كالكُشتبان ثم أشعلها وشد منها نفسا فتوهجت كالجمرة ثم قال والدخان يخرج من فمه وأنفه:

- قلب في الأطلس المتوسط. مناظر وجو!

لَمَّ أنامله وقبلها.

- ... سويسرا والسلام!

يوشك الدخان أن يخرج حتى من أذنيه. قالت له رقية وأكدت وحدة التفكير بيني وبينها:

-أقلع عن هذه العادة وإلا سقطت في أعين الناس.

فقلت:

- غدا تجدينه يدخن الغليون أو سيجار هاڤانا.

فضحك ضحكته المتقطعة التي تجعله يبدو وكأنه يسعل وقال:

- يا لها من فكرة جهنمية!

وخرج وهو يضع ثقل جسده كله على ساقه السليمة فقالت رقية:

- لن أستغرب منه ذلك. لقد أراد السياقة لولا حزمي الذي تعرفينه. تصوري! يريد أن يسوق بساقه المعطوبة.

- لقد لعب الاستقلال برؤوسهم.

وسكتنا مدة فكرت خلالها في ما عساني أعمله. وقالت:

- لا تحملي هما.

- لن أجد عملا.

- بالأمس قلنا لن يخرج الاستعمار.

- لو أن ما سيكون أهون مما هو كائن!

- ما أكثر ما اغتممنا مسبقا من أشياء لم تقع.

- كل هذا لأنني امرأة.

- المصائب ليست عنصرية.

- لو كنت رجلا لكنت الآن قائدا أو على الأقل شيخا. إننا نرد إلى الظل عنوة بعد كل ما كان.

- ساعة الخطر تغير الحِرباء لونها ولكنها لا تلبث أن تعود إلى الطبيعة.

نظرت في وجهها وخامرني ذلك الانطباع بالأمومة الذي ينضح به والذي يأتي أيضا من حركاتها وسكناتها ونبرات صوتها ويتجدد كلما كانت والفقيه مجتمعين. ربتت على فخذي وقالت:

- في سبيل الله ما كان.

- حسبي أن الوطن عزيز. أنا صادقة.

- أعرف ففي مثل ظروفك لا يملك الإنسان أن يكون إلا صادقا.

وذهب الفقيه إلى أزيلال. جاءت سيارة حكومية جلس فيها جلسة مسرحية وانطلقت به وذهبنا نحن إلى مصنع الزيوت فبادرنا حارسه قائلا:

- ماذا تريدان؟

- المدير.

- عندكما موعد؟

- لا.

مسح ذؤابته وقال بعجرفة كأن المصنع مصنع أبيه:

- لا يوجد عندنا عمل.

- دعنا ندخل.

- لا.

- لن تجد أشد بغضا للبؤساء من البؤساء أمثالهم.

قلت له ذلك بعدما أثار غضبي. وجاءت سيارة فرفع العارض ودخلت فأعاده بسرعة. وانتظرت حتى ابتعد صوت محركها وقلت له:

- لن نفلح وفينا أمثالكم.

وقالت رقية:

- ويستجوب كأنه وزير الصناعة.

تشاءمت ولكنني تبعت رقية إلى مصنع آخر. هناك قلنا إن ما نريده هو معرفة الكيفية التي يحصل بها الناس على العمل عادة فقيل لنا بنفس الفتور إن علينا أن نرسل طلبا مكتوبا. وفي الحافلة قلت لرقية إن البلاد يحكمها السكرتيرات والفراشون ولكنها أوجست ولم تعقِّب.

طبعنا عدة رسائل عند كاتب عمومي ووضعناها في صندوق مكتب البريد. سرى خبري في الزقاق وعلم الناس بكل شيء بما في ذلك بحثي عن عمل.

في تلك الأيام جاءت أختي الصغرى مع زوجها. أحد ما طيَّر لها الخبر. ماذا تريد؟ قال زوجها وهو يدخل:

- وكليني عليه وأنا أريه النجوم في الظهر.

الثعلب! في حياته لم يتدخل للوفاق أبدا. ثعلب كما كانت أمي تسميه. وقالت زوجته:

- هكذا تدعيننا نسمع الخبر من الناس؟ هل نحن إخوة أو أعداء؟

وعاد هو يقول:

- دعيني أسجل لك دعوى عليه.

فقلت بحدة:

- علامَ؟ حقوقي أداها كاملة طبقا للقانون فعلام أقيم الدعاوى يا ترى؟

- تعالي نستشر محاميا على الأقل.

- أنا لا أريد منه شيئا.

وجاءت رقية. صفت حذائيهما عند باب الغرفة ودخلت فقالت لي أختي:

- قومي اجمعي حاجاتك.

أذهب عندها؟ في آخر أيامي يكفلني الأصهار؟ سُخْرة في ثوب كفالة! وسألتها رقية:

- لأي شيء؟

قالت:

- لتأتي معي.

فقلت:

- لن آتي مع أحد.

قالت:

- ألست أختك؟ وأولى بك من الغريب؟

وقال زوجها:

- تتسكعين عندما لا تكون لك عائلة.

تملت رقية خارجا وقلت وقد زاد غضبي:

- لست تركة خلفها الوالد ولن أبرح الدار البيضاء.

فقالت:

- والدار البيضاء؟ تركها لك أبوك؟

قلت:

- لا. لم يترك شيئا، رحمه الله.

سكت للحظات ثم قلت:

- لقد كاتبت بعض المصانع وسيأتي الرد.

فهز كتفيه استخفافا وقال:

- العمل اليوم بالكالوريا وغدا بالليسانس وبعد غد لن يخول الليسانس نفسه كنس الشوارع.

قلت:

- أريد عملا يضمن لي لقمة العيش، فقط. لا أريد منصبا في سلك الدولة.

فقالت وقد أبت التسليم بالهزيمة كعادتها:

- وماذا تشتغلين في آخر أيامك؟

سبق أن قلت إنني فقدت القدرة على المراعاة والمداراة والحياء وحين يُضغط علي أنفجر كائنا من كان المسؤول. وهذا ما حدث بالضبط. قلت لها وأنا أعلم رد فعلها:

- وهل لك وصاية علي؟

فنزل قولي عليها كالصفعة. اصفرت واندفعت خارجة يتبعها زوجها ثم انتعلا أحذيتهما في اضطراب. وحاولت رقية

أن تستبقيها فأقسمت بأغلظ أيمانها ألا تبقى وانتشلت نفسها منها بصعوبة.

كلمة في لحظة غضب ستكلفني مقاطعة أعوام. هي كذلك. جمالها قضى عليها وأفسدها. أنزلها منذ الطفولة منزلة مختارة عند القريب والبعيد وجعل إتيان ما تريده تحصيل حاصل وإلا شنت حملات مقاطعتها التي تستمر أعواما. تتصور أن لا أحد سواها يستحق الحب والجاه والمراعاة فإن وجدته نفثت فيه سمومها. وأرسلت لها الأقدار رجلا من ذات طينتها فتكامل ثنائيهما على نحو رهيب وخرجت منه تشكيلة لم تبصر لها عيني مثيلا. ويوم يأفُل الجمال وهو لا محالة آفل، ويذهب الجاه وتفتر المراعاة، يومها تتحول إلى كائن يحرق ما يلمسه. أما لو تسرب الخلاف بينها وبين زوجها، لا قدر الله، لقامت القيامة.

أنا الآن أسقطت إرادتها في التراب. لم يحدث ذلك من قبل وإن كان بإمكانها هي أن تفعله لو شاءت مع أنني أكبر منها، ولكن ظروفي كما قلت جرّدتني مما تعارف الناس عليه من سلوك. لن أراها إلا بعد ست أو سبع سنوات وقد لا أراها بعد اليوم أبدا. فليكن. وعلى كل حال لعلها ما جاءت إلا نكاية إذ لا شيء أبغض إليها من أن يفضلها أحد. ناهيك إن كان هذا الأحد من نفس الأب والأم.

حسبنا أن الضغائن غسلها النضال مثلما حسبنا أن

الاستقلال مفرج لكل الهموم ودواء لكل الأدواء كما يقول باعة العقاقير في الأسواق. حمّلناه في الواقع أكثر مما يحتمل. ونحن الآن ليل نهار تحاصرنا فلسطين وفيتنام وبيافرا ...والبقية تأتي.

قالت امرأة إن المركز الثقافي الفرنسي يحتاج لعاملة تنظيف. لم يعجبني قولها وتذرعت في رفضه بترقبي رد المصانع ولكنه لم يأت فتأكدت من حقيقة أساسية وهي أننا لا غنى لنا عن الفرنسيين رغم كل شيء وذهبت مع المرأة.

دقّقوا في أوراقي وطرحوا علي جملة من الأسئلة ثم قالوا :

- قبلناك.

فتسلمت العمل واكتريت حجرة ورحلت رقية واقتنيت أثاثا قديما على مراحل. لم أنته من ذلك بعد. فيما عدا رقية والفقيه لا علاقة لي برفاق النضال ولكنني أعرف ما فعلته بهم رياح التغيير. الحاج علي ما زالت ورشته هي ورشته. رجل شارك في النضال الوطني عند الضرورة وعرف كيف يعود إلى مكانه. كبر أبناؤه وبناته وأصبح فيهم مهندس الدولة والأستاذ الجامعي. أفكر فيه فأدرك بإعجاب متجدد كل مرة كأنني أكتشف الأمر لأول مرة أنه من الحدادة خدم وطنه وصنع أبناءه.

رحال قائد في الحوز.

وولتر يعيش في ضيعة مسترجعة بنواحي تارودانت. لعله يديرها لحساب الدولة. سمعت أنه زوج ابنتيه لمغربيين.

صفية عُيِّن زوجها والياً في جهة ما. بَدَّلها الاستقلال وشوهها بين مَنْ بَدّل وشوَّه. قصت شعرها وبدأت تخرج في الزي الأوروبي. إياها أقصد عندما أتكلم عن الذين يلبسون الفرو والحرارة فوق الثلاثين. آخر عهدي بها يوم سرقت من الودائع ذلك الثوب الحريري التقليدي. ما زلت إلى الآن أراه أمامي. وقتها خرجت من الدار البيضاء من دون أن أودعها.

نسيت رشيد، الجزائري الذي كان يشتغل مع زوجي وجاءني بخبر إلقاء القبض عليه. هل تذكرونه؟ عاد إلى بلاده وتولى فيها منصبا ساميا.

هل تركت أحدا؟ شيخ الضريح. ما زالت حيويته هي حيويته وما زلتَ كلما أبصرتَه يخيل إليك أن السنين لا تمر به. أراه كل عام كلما رجعت إلى البلد لتسلم محصول كراء حجرتي. في آخر مرة سألته ممازحة:

- من أين لك الحيوية؟

كما يقول آخرون من أين لك هذا[1]؟

- ... ماذا تأكل يا سيدي؟

---

(1) عبارة ترددت بعد الاستقلال ، يقصد بها الذين أثروا بطرق غير مشروعة.

- خبز شعير وزيتونا وماء زلالا.

- عندك سر تخفيه. لا تحاول أن تتملص.

- إنه السلام، مع النفس. لاشيء غيره.

سره ما طرأ علي من تغيير معنوي فقال ذلك وتبسم وقرأت أفكاره فقلت:

- نعم، ذهب الكَرْب واليأس. كأنني ما التقيت بهما.

- وعداؤك للدنيا؟

- الدنيا إلى زوال. هل أقول لك أنا ذلك؟

- نسيتِ الماضي؟

- ما مضى وهم والحقيقة المطلقة هي الواقع المعيش.

- وماذا في واقعك المعيش؟

- عمل وإيمان وأشياء أخرى لا تهم. المهم أنني أذكر الله وأركز في الفكرة التي احتلتني وهي أننا على الأرض لنشق طريقنا نحو السماء.

رضي الشيخ فتبسَّم من جديد ثم قال:

- كيف وصلت إلى ذلك؟

- بالتدريج. حين رجعت إلى الدار البيضاء، من سنين. تذكر؟

كنت أحسب حالتي فريدة حتى رأيت على مكتب إحدى

موظفات المركز الثقافي الفرنسي مجلة على غلافها صورة بالألوان لكهل وفتاة حسناء استوقفني جمالها فأنعمت فيها النظر وقالت الموظفة ضاحكة:

- الدكتور برنار، أيثير اهتمامك؟

- زارع القلوب الجنوب إفريقي الذي تتحدث عنه الأخبار.

- نعم.

- وهي؟ من هي؟

- زوجته الجديدة أما القديمة التي عاش معها عشرين عاما فقد طلقها بعدما أصبح مشهورا.

زاد اهتمامي وواصلت الموظفة:

- في المدة الأخيرة نشرت كتابا، أعني الزوجة القديمة، يحكي مأساة المرأة التي ينقلب عليها زوجها عندما يتحسن وضعه.

انعقد لساني وسحبت الموظفة المجلة مني وقلبت أوراقها ثم أعادتها إلي مفتوحة على صورة الزوجة القديمة بين ابنها وابنتها. ومع تفحص الصورة تحرك الحزن. لشد ما يتشابه الإنسان! وكم أفهم هذه المرأة! لا أحد يستطيع فهمها كما أفهمها أنا. كأنني أنظر إلى نفسي. كأن الله يخلق من النصيب الواحد أعدادا متعددة كما يخلق من الشبه أربعين. ترى كم

رجل مسؤول تمسح زوجته بلاط الفرنسيين؟ ووجدتني أقول:

- لعلها بلدية هي الأخرى.

- هي الأخرى؟

- لعل لها مثيلات في جهات أخرى، ربما في الدار البيضاء.

وضحكت الفرنسية واستوعبني التفكير في القدرة الخفية. منذ ذلك اليوم خف شعوري بمصابي وبدأت أتعود عليه مثلما يتعود الإنسان على عطب جسدي طارئ.

أنا الآن أشتغل وأعود إلى حجرتي وأعيش في حدود يومي. نسيت الماضي كما قلت للشيخ، نسيته تماما، كأنه لم يكن أو كأنه لا يعنيني أنا. الكرب لم تبق منه سوى ذكريات باهتة وعام الرفاهية لم يبق منه شيء. سميته كذلك قياسا على عام الفيل.

أريد أن أرضى رغم التدهور، أن أثبت أن الحياة لا يعمرها إلا الأنذال، أن كل شيء جديد ومتغير وعلى ما يرام.

حوار مع ليلى أبو زيد
حول عام الفيل

ما الذي دفعك لكتابة عام الفيل؟

علاقتي بالكتابة تعود إلى الطفولة حيث كنت أجد المتعة في القراءة لا في اللعب فكنت أحصل في المدرسة على الدرجة الأولى في مادة الإنشاء. بدأت أنشر مقالات في الصحف الوطنية وأنا في الثانوي وساهمت في برامج القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية وأنا طالبة في كلية الآداب بالرباط. وبعد الجامعة أنتجت برنامجا يوميا للإذاعة المغربية ثم عملت صحافية في التلفزيون. ولم أفكر في التأليف إلا بعد أن ترجمت من الإنجليزية إلى العربية، سيرة الملك محمد الخامس للمؤرخ البريطاني روم لاندو، بطلب من إحدى المصالح الحكومية في المغرب.

بعد ذلك كتبت مذكراتي عن الفترة التي قضيتها في لندن بين عاميْ 1968 و1969 ونشرتها الدار التونسية للنشر وهي حينذاك أكبر دار للنشر في المغرب العربي. وجاء قرار القبول مرفقا برسالة إشادة من لجنة القراءة كانت حافزا قويا لقيامي بالخطوة التالية وهي كتابة نص أدبي ولم أكن مستعدة للرواية بعد فبدأت بالقصة القصيرة. وعندما كتبت ثمان قصص نشرتها الصحف المغربية وأذاعها القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية أدركت أن الوقت قد حان لكتابة الرواية فكانت عام الفيل.

ما مقدار ما منك في شخصية زهرة؟

لا شيء مني في شخصية زهرة. عندما تحدث الناقد الأمريكي حسن إهاب عن عام الفيل في كلية الآداب بالرباط، طُرح عليه هذا السؤال: «هل زهرة هي ليلى أبوزيد؟» فقال: «لو كان الأمر كذلك لكان عمر ليلى أبوزيد الآن ثمانين عاما.» وهذا صحيح. إنه جيل والدتي وليس جيلي.

تتحدثين في عام الفيل عن مغرب ما بعد الاستقلال مباشرة. كيف ترين مغرب اليوم، مغرب مُسْتَهلّ القرن الواحد والعشرين؟

الفترة التي أتحدث عنها في عام الفيل هي أواخر الخمسينيات. الفرق نصف قرن والتغيير الذي حدث خلال هذه الفترة كان سريعا وهاما وهو لا ينفك يزداد سرعة وأهمية مع ثورة الاتصال والعولمة وهو واضح في نمو وتطور الوسط

الحضري والاقتصاد والبنية التحتية والموارد البشرية وبشكل خاص في أوضاع النساء، الخ...

كيف تغيرت أوضاع النساء؟ هل يمكن أن تجد امرأة مغربية اليوم نفسها في ظروف شبيهة بظروف زهرة؟

المرأة هي أكثر من استفاد من التغيير حيث تحول دورها الاجتماعي 360 درجة عندما بدأت تضع المهنة قبل الزواج فانتقلت من إنسانة تقليدية، أمية، معولة، معدة لغاية واحدة هي أن تكون أمًّا وزوجة، إلى الإقبال على التعليم بغاية أن تكون مواطنة راغبة في المساهمة في عملية التنمية الوطنية وتحقيق استقلالها الاقتصادي والذاتي. ولكن رغم هذا التغير في أوضاع معظم النساء بفضل التعليم والتكوين ومن ثمة الاستقلال الاقتصادي والشخصي، ما زال هناك كثيرات ممن هن في وضع زهرة ويمكن أن يجدن أنفسهن في نفس ظروفها. أقصد بذلك النساء الشبه أميات اللاتي يصعب عليهن إيجاد عمل لائق.

كيف كان تلقي عام الفيل في المغرب؟

ردة الفعل الأولى في المغرب كانت من عموم القراء. حيث نفذت الطبعة الأولى في ظرف وجيز نسبيا وظلت تحت الطبع منذئذ أي منذ 1983 لتبلغ بطبعة المركز الثقافي العربي هذه طبعتها السادسة وهذا بالنسبة للرواية المغربية أمر غير معتاد. أول دراسة نقدية مغربية لعام الفيل نشرت في العام 1996 تلتها رسائل جامعية باللغتين العربية والإنجليزية.

كيف استمرت كتابتك بعد عام الفيل؟

النجاح الذي حظيت به عام الفيل لا سيما كرواية أولى من حيث إقبال القراء عليها في المغرب وترجمتها إلى الإنجليزية واعتمادها في برامج جامعية في الولايات المتحدة واحتفاء النقاد الأمريكيين بها وترجمتها إلى الألمانية والهولاندية والإسبانية والفرنسية والأردية[1]، كانت مفاجأة لي، سارة ومرهبة. كنت قد عبرت فجأة من الهواية إلى الاحتراف مع كل ما يعنيه ذلك من ضغوط ومسؤولية. ومنذ 1983 صدرت لي رواية أخرى ومجموعتان قصصيتان وسيرة ذاتية اعتمدتها وزارة التعليم المغربية في برامج التعليم الإعدادي في 2005 كما نشرت السيرة النبوية بالإنجليزية[2] والتي ما تزال نسختها العربية تحت الطبع.

عندما نشرت عام الفيل كان هناك عدد قليل من الروائيات في المغرب. كيف هو الوضع الآن؟

عندما نشرت عام الفيل لم تكن هناك سوى روائية مغربية واحدة كانت تكتب باللغة العربية في الستينيات هي خناثة بنونة. ولأنني بدأت أكتب الرواية بعد عشرين عاما اعتبر بعض النقاد المغاربة خناثة بنونة رائدة الستينيات واعتبروني رائدة

---

(1) لغة باكستان .

(2) Life of the Prophet, a Biography of Prophet Mohammed.

الثمانينيات. وهناك الآن في المغرب عدد من الروائيات يكتبن بالعربية والفرنسية وحتى بالإنجليزية.

لماذا اخترت الكتابة بالعربية في حين كان جل ما يصل من أدب مغربي إلى العالم مكتوبا بالفرنسية؟ كيف هو حال الأدب المغربي المكتوب باللغة العربية اليوم؟

لم يكن الأدب المغربي في ذلك الوقت مكتوبا كله بالفرنسية. كان المغرب قبل الاستعمار الفرنسي موجودا كأمة بكل ما تشمله الكلمة بما في ذلك الأدب ولاسيما الشعر والحكاية وأدب الرحلة، الخ... في شكلها الشفوي والمكتوب. أول جنس أدبي مغربي حديث صدر في الأربعينيات باللغة العربية كان سيرة ذاتية بعنوان **الزاوية** للتهامي الوزاني. صحيح أن أول رواية مغربية "Le passé simple" لإدريس الشرايبي صدرت بالفرنسية في 1954 وأن أول رواية مغربية مكتوبة بالعربية دفنا الماضي لعبد الكريم غلاب لم تصدر إلا في 1964. وإذا كان ما وصل إلى العالم من أدب مغربي حينذاك مكتوبا بالفرنسية فذلك لأن الناشر الفرنسي كان حريصا على ترجمته إلى اللغات الأوروبية ولم يكن ليهتم بالأدب المغربي المكتوب بالعربية الذي كان على كل حال، شأن عموم الفرنسيين، لا يعلم عنه شيئا. بعد ترجمة عام الفيل إلى الفرنسية قال لي بعض الفرنسيين إنهم كانوا يعتقدون أن الأدب المغربي مكتوب كله بالفرنسية. وقد جعل ذلك البعض في

المغرب حتى بعد الاستقلال، يعتقد أن الوسيلة الوحيدة لإيصال الأدب المغربي إلى العالم هو كتابته باللغة الفرنسية أو هكذا كان بعض الكتاب الفرانكوفونيين المغاربة يبررون كتابتهم بالفرنسية. إلا أن الحركة الراهنة لترجمة الأدب المغربي المكتوب بالعربية إلى لغات أجنبية والتي انطلقت من أقسام النشر في الجامعات الأمريكية، أثبتت أنه لم يعد بالإمكان إنتاج أدب وطني بلغة أجنبية بحجة إيصاله إلى العالم.

كتب للمؤلفة

روايات:

* عام الفيل.

* الفصل الأخير.

قصص:

* الغريب، قصص من المغرب.

* المدير، قصص أخرى من المغرب.

سيرة:

* حياة الرسول:

* Life of the Prophet, a Biography of Prophet Mohammed.

سيرة ذاتية:

* رجوع إلى الطفولة.

أدب رحلة:

* بضع سنبلات خضر.

* أمريكا، الوجه الآخر.

مترجمات:

* محمد الخامس، منذ توليه العرش إلى يوم وفاته.

* ملكوم إكس Malcom x، (سيرة ذاتية).

ليلى أبوزيد حاصلة على الإجازة في اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة محمد الخامس بالرباط وجامعة تكساس بأوستن. بدأت حياتها المهنية صحافية في الإذاعة المغربية والتلفزيون وعملت في عدة دواوين وزارية بالمغرب.

كتبت الرواية والقصة والسيرة النبوية والسيرة الذاتية وأدب الرحلة. وترجمت من الإنجليزية إلى العربية سيرة الملك محمد الخامس والسيرة الذاتية لمالكوم إكس Malcom x.

ترجمت أعمالها إلى الإنجليزية والألمانية والهولاندية والإيطالية والإسبانية والمالطية والأردية (لغة باكستان).

ببليوغرافيا

د. عبد العالي بوطيب:

1996، المغرب. «عام الفيل، رواية المفارقات المغربية.» سلسلة ندوات، عدد 9 (المرأة والكتابة). جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، ص 65.

د. بثينة شعبان:

1999، سوريا. «سيدات المهنة.» (مائة عام من الرواية النسائية العربية) دار الآداب، بيروت، الفصل الثامن.

د. عبد العالي بوطيب:

2003 المغرب. «الفصل الأخير: رواية حكاية مركبة.» الثقافة المغربية. مج 62، ع 24- 25، ص 88.

د. رشيدة بن مسعود:

2006. المغرب «زمن الخيبة والحلم.» جمالية السرد النسائي. شركة النشر والتوزيع «المدارس» الدار البيضاء. ص 101.

Michael Hall :

1995. Australia. "Leila Abouzeid's Year of the Elephant: A Post-colonial Reading." (Women a Cultural Review) Volume 6 no 1 Oxford University Press, pp 67- 79

John Maier:

1996, USA. "Exchanging Strangeness: Fiction of Jane Bowles and Leila Abouzeid." (Mirrors of the Maghreb) Caravan Books, Delmar, New York, pp 151-185.

John Maier:

1996, USA. Leila Abouzeid's "Divorce". "Desert Songs, Western images of Morocco and Moroccan images of the west" State University of New York Press, pp 197-201.

Salah Moukhlis

2003, Morocco. "A History of Hopes Postponed: Women's Identity and the Postcolonial State in Year of the Elephant: A Moroccan Woman's Journey Toward Independence. "Research in African Literatures, volume 3, pp 66-83.

Hunter Eva

2006, USA. "Feminism, Islam and the Modern Moroccan Woman in the Works of Leila Abouzeid." African Studies 65.2, pp 139-155.

Paulin Homsi Vinson

2007, USA. "A Muslim Woman writes back. Leila Abouzeid's Return to Childhood: The Memoir of a Modern Moroccan Woman." Arab Women's Lives Retold, Exploring Identity Through Writing. Seracuse University Press.

Diya M. Abdo.

2009, Jordan. "Textual Migration: Self -Translation and Translation of the Self in Leila Abouzeid's Return to Childhood. The Memoir of a Modern Moroccan Woman and Ruj' Ila Al-Tufulah." Frontiers, a Jounal of Women Studies - Volume 30, Number 2, 2009, pp. 1-42.

Silvia Costa Ferreira

2009, USA. "Resistance from Within: Literary Negotiations of Female Identity in the Space of the Postcolonial Home." Senior Honors Thesis. Department of Comparative Literature. Dartmouth College.

Abdelkader Cheref

Algeria. 2010. "Gender and Identity in North Africa: Postcolonialism and Feminism in Maghrebi Women's Literature." I.B. Tauris Publishers.

Touria Khannous

2010, Morocco. "Islam, gender, and Identity in Leila Abouzeid's The Last Chapter: A Postcolonial Critique." college Leterature 37.1, pp . 174-189.

مكتبة
الأدب
المغربي

ليلى أبو زيد

عام الفيل

عام الفيل... استطاعت تغيير نظرتنا السلبية للكتابة النسائية فاستحقت بذلك إعجاب القراء والنقاد على حد سواء.

د. عبد العالي بوطيب
جامعة المولى إسماعيل، مكناس، المغرب.

رواية سهلة وبسيطة وممتعة ومؤثرة جدا ومكثفة. صحيح أن هذا النص لا يمكن أن تكتبه إلا امرأة وبصورة أكثر تحديدا، امرأة مغربية إلا أن مواضيعه هامة لكل من الرجال والنساء.

د. بثينة شعبان
جامعة دمشق.

يشكل الشيخ، والنص نفسه، في عام الفيل تناقضا صارخا مع الصور الكالحة لآيات الله المجانين والأصوليين المتطرفين التي تزخر بها وسائل الإعلام الغربي والخطاب الأكاديمي الغربي على السواء. (...) وفي العديد من المراجع عبر النص تتأكد صورة إيجابية للإسلام كقوة لإحلال العدالة الإجتماعية والتحرر.

د. مايكل هول
جامعة ملبورن. أستراليا.

تعطي المؤلفة الكفاح الوطني المغربي بعدا إسلاميا عندما تقارنه بواقعة عام الفيل التي لم تكسب بالتفوق العسكري ولكن بتكاثف جهود عناصر بسيطه هي عبارة عن أسراب من الطير استطاعت قلب الموازين في حرب غير متكافئة. والمؤلفة تشير بذلك وتعطي المصداقية لدور الناس البسطاء، الذين لا تذكرهم كتب التاريخ.

د. إليزابيث فرنيا
جامعة تكساس، أوستن.

لا يوجد مثقف عربي، إلا وتأثر بالأفكار الأوروبية الحديثة. لذلك يُعَدّ الكلام عن الأصالة في غير محله ولكن أمام نص فذّ كنص أبو زيد يتحرك في مجال دولي. (...) وأمام ما يتيحه هذا النص من مشاهد من قلب المجتمع المغربي، فريدة من نوعها، لا يبقى أمامنا من خيار في وصفه سوى كلمة "أصالة".

د. فدوى مالطي دوغلاص
جامعة إنديانا.

ISBN 978-9953-68-519-3
9 789953 685199

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب 113/5156
markaz@wanadoo.net.ma
cca_casa_bey@yahoo.com